

فالد الجزار

رواية

الجابشكبر



عنوان الكتاب : الجاشنكير

المؤلف : خالد الجزار

تصحيح لغوى : عبد الهادي عباس

تصميم الغلاف : عبير محمد

إخراج فنى : ibiidi

رقم الإيداع : ٢٧١٧٨ / ٢٠١٨

ردمك : 4-94-6549-977-978

الطبعة الأولى : ديسمبر ٢٠١٨



رئيس مجلس الإدارة: شريف الليثي



دار تويّا للنشر والتوزيع



dartoya2015@gmail.com



Dar.toya دار تويّا للنشر و التوزيع



@Dar_Toya



Dar.toya



(+2)01202222098



٣٥ شارع النصر - الهادي - القاهرة - مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

الإهداء

إلى واحتي وسط جذب الحياة القاسي
إلى من شاركتني حياتي بكل ظروفها
إلى من تحملت الكثير من أجلي
إلى زوجتي.

"وصلت لحكم مصر بالسيف ولن أتخلى
عنها إلا بالسيف! أعرف الأتراك، هم
للبيع وسأشترتهم".

من أقوال محمد علي

”تنويه“

هذا العمل، الذي بين يديكم، عملٌ أدبيٌّ
محضٌ، وليس كتابًا تاريخيًا؛ لذلك وجب
التنويه.

(1)

عاشقة الطرب

على الطبلية الخشبية المستديرة تحركت مخرطة الملوخية برتابة بين يدي «فاطمة»؛ تسحق الأوراق الخضراء تحتها دون رحمة، وتحولها إلي قطع صغيرة، تلتصق ببعضها في محاولة يائسة لمقاومة السلاح الحاد المستدير لتلك الآلة، تجمعها بنصل شبه دائري، تحكّه في القاعدة الخشبية، تشكلها على هيئة مخروط صغير، يعاود السلاح الحديدي عمله مرة أخرى فارمًا الأوراق الخضراء، التي تبدو من وجهة نظرها، وبناءً على الخبرة التي تحاول اكتسابها من أمها، ما زالت تحتاج إلى تنعيم.

بدت «فاطمة» مستمتعة بعملها، وهي تردّد بعض الأغاني الشعبية، التي تتقنها جيدًا، بعد أن استمعت إليها كثيرًا في أفراح الحيّ، تحبّ الغناء؛ ويُطربُ كلّ من يسمعها، تجيد الرقص والنقر

على الدُف، توّبخها أمها إذا ما رأتها ترقص أو تنقُر، ولو على غطاء وعائهم النحاسي؛ خوفاً أن تحسدها إحدى الجارات إذا ما رأيتها، تحركت المخرطة على الطبلية مع نغمات الدور، التي تصدح بها، ضايقها الدخان المتصاعد من الكانون بجوارها، خانقاً اللحن، الذي تردده، في خلْقها.

على الأرض، جلست «نفيسة»؛ أمها أمام بعض الحجارة؛ رصتها بطريقة معلومة، وفوقها وضعت وعاءً نحاسياً متواضعاً، به أرنب لا يقل تواضعاً عن الوعاء، واطعة بعض القشّ اليابس تحته؛ بعد أن أضرمت النار فيه، منتظرة أن ينضج الأرنب الصغير؛ حصل عليه ابنها «أحمد» مقابل نقل بعض الزناجيل¹ من على الشواغر² ووضعها على الحمير، رفض مالك البضاعة منحه أجره نقدًا مقابل عمله هذا؛ ربما أقدم الرجل على هذا لأنه لم يقوم بالعمل كما يجب، أو ربما لأسباب أخرى، لم يفصح عنها التاجر؛ وأعطاه في المقابل أرنبين؛ هرب منه أكبرهما في الميناء، حاول اللحاق به؛ ففشل في إعادته ورجع بهذا الذي تسعى الأم لطهيه.

اشتعل الحطب، وصفا هواء البيت من الدخان؛ الذي زاد السناج على العروق الخشبية المتهدّلة، التي تحمل سقف البيت؛ فزادته سواداً، ما حدث وما يحدث أحياناً لا يخلو من الفائدة، فالذباب هرب من البيت الصغير، الذي تعيش فيه «فاطمة» وأمها وأخوها؛ جالب الأرنب، والأب الذي قد يحضر اليوم ويشاركهم طعام الغذاء.

1 - أكياس كبيرة من الخيش توضع فيها البضائع.

2 - ما يوضع على ظهر الجمال لتحميل البضائع.

عادت لتكمل الدور الذي كانت تغنيه؛ والذي منعها الدخان من إكماله. اقتربت الأمّ منها وجلست بجوارها تستمتع بغنائها «العفو يا سيد الملاح» الذي تطرب له، وهي تتمايل مع نغماته، توقفت عاشقة الطرب عن الغناء، وعن خرط الملوخية بعد أن اطمأنت أنّها وصلت للنعومة المطلوبة، والتي دائماً ما تصرُّ عليها الأمّ في يومٍ مميّزٍ مثل هذا، على الأقلّ بالنسبة لها، فَ فاطمة بنت الرابعة عشر ليست بصغيرة الآن، من المنتظر أن يتقدم لها صاحب نصيبها في أيّ وقتٍ، وعليها الاستعداد لذلك، هي تجيد الطهي، وتنظيف المنزل وترتيبه، كما تجيد الغناء والرقص، ستكون هدية ربّانية لزوج المستقبل؛ يسعد بها ويهنأ بلا شكّ.

في انتظار نضج الأرنب ليكون الحساء جاهزاً لعمل الملوخية؛ التقطت الأمّ رأس ثوم، وأخذت تقشّر بعض فصوصه، وأسرعت تدقها في الهاون الحجري، بعد أن أضافت القليل من الملح، والكثير من الكزبرة الجافة، لم تضيّع ابنتها الوقت؛ انشغلت في تنظيف غرفة نوم أمّها، والتي تشاركها النوم فيها، طالما الأب غائباً في عمله، أخرجت المرتبة المحشوة بالقشّ الناعم إلى سطح البيت؛ مطهرة إياها بشمس مارس، كما تعوّدوا على ذلك بعد أوامر مشدّدة من الفرنسيين الذين تدخلوا في كلّ تفاصيل حياتهم، فشمس هذا الشهر قد تختفي في أيّة لحظة.

استلقت فاطمة على المرتبة لتنعم بدفء الشمس هي الأخرى،
فانحناء ظهرها أثناء خرط الملوخية، وحمل تلك المرتبة الثقيلة جعل
التعب يداهم جسدها الغض، فراحت في غفوة لم تطل، أيقظتها
أصوات المدافع؛ فهرعت هابطةً عن سطح المنزل مرعوبة؛ ف في
السنوات القليلة الماضية، وفي وجود المحتلين دائماً ما كان صوت
القذائف نذير شؤم.

أسرعت فاطمة تبحث عن أمها في حجرتي البيت؛ لتحتمي
في حضنها كما اعتادت كلما ضجّت القاهرة بطلقات القنبر،
والرصاصة المندفعة من بنادق الفرنسيين بطريقة عشوائية،
فلا تفسير لذلك إلا أنّ آلات الموت قرّرت أن تحصد عدداً كبيراً
من الأقارب والجيران والمعارف، وقد كان خالها واحداً من الذين
تمكنت رسل الموت من غرس رصاصاتها في صدره؛ بعد أن فشل
في الاختباء خلف إحدى المتاريس، التي بنوها ليحتموا بها في
ثوراتهم ضد المستعمرين الكفرة.

بكل ما أوتيت من هلعٍ صرخت تنادي أمها؛ ولكن ما من
مجيبٍ، تضاعف خوفها مع أصوات المفرقات التي كادت تصمّ
أذنيها، اختبأت خلف صندوق خشبي قديم يستخدمونه في وضع
ملابسهم، لا مخبأً لها إلا حضن أمها، التي اختفت، ولا تعلم ما
حدث لها، أو ما سيحدث لها هي أيضاً .

كاد الهلع يعصف بالصغيرة، فوَّع الخطوات خارج الغرفة قد يكون لبعض المماليك أو الأتراك أو لِمَلِكٍ أخرى من التي كثرت في مصر بعد انسحاب الفرنسيين منها، سيأخذونها سيئةً ويبيعونها في سوق الجوارى، فجأةً عادت البسمة إلى وجهها، خرجت زفرة قوية من صدرها؛ اطمأنت بعد سماع صوت أمها وأخيها، ارتعشت أوصالها بعد أن كادت تتجمد، وعادت للحياة مرة أخرى بعد أن غرس الضعف والخوف مخالبه في جسدها النضر وأكملت غفوتها خلف الصندوق.

أعادت الأمّ وضع الوعاء النحاسي على الكانون وأشعلته مرة أخرى، دخل أحمد حجرة نومه التي يتشاركها مع أخته عندما يتواجد أبوه؛ غرفة ضيقة قليلة المتاع، صندوق خشبي متوسط في أحد أركانها لُف بعناية بقطعة من قماش الكتان المهترئ، يبدو أنّ له أهمية خاصة عند صاحب الغرفة، حصيرتان صغيرتان؛ إحداها مطوية فوق الصندوق لا تفرش إلا في وجود الأب أو وجود زائر، وهو ما يحدث نادرًا، وسادتان من ليف النخيل، واحدة على طرف الحصيرة المفروشة على الأرض، والأخرى فوق الحصيرة على الصندوق، وفي الركن المقابل للصندوق بيرق معلق على خشبة رشيقة ملفوف حولها عَلمٌ أحمر كالح اللون؛ مزينة أطرافه بشریط أصفر، التقطه وخرج مسرعًا من غرفته.

مَرَّ أمام أمّه التي أخرجت الأرنّب بعد أن تأكّدت من اكتمال
نضجه في غطاء الوعاء، ووضعت الملوخية في الحساء وقبّلتها
جيداً، تذوّقَها بطرف الملعقة، شعرت بأنّ عليها أن تضيف القليل
من الملح، نادى على فاطمة لتعطيها قرطاس الملح الموضوع على
رفّ خشبي معلق بحبال في أحد عروق الغرفة، لم تجبها! أعادت
النداء؛ ما من مجيب، نادى على ابنها وهو في عجلة من أمره،
توقف وقبل أن ينظر نحوها سألته:

- ألم تر أختك؟

- لا.

- أليست في غرفتك؟

- لم أرها منذ أن دخلتُ معكِ المنزل، لقد تأخرتُ وعليّ الإسراع.

- ألن تتناول غداءك؟

- لست جائعاً؛ فطرت تَوّاً.

تركها واندفع مغادراً، والحماسة كادت أن تنفجر من وجهه
الأسمر النحيل، ابتسمت أمّه له، وقامت تبحث عن ابنتها، وجدتها
مكّومة في حالة إعياءٍ شديدٍ خلف صندوق الملابس في غرفتهما،
المسكينة لم تستطع أن تفرّق بين طلاقات الاحتفال، وبين المدافع
الفرنسية التي دكّت القاهرة أكثر من مرة، ورغم رحيلهم عن البلاد

منذ أربعة أعوام، إلا أنّ الصغيرة لم تستطع أن تنسى أنّها ذات مرة
رأت الموت تحت أنقاض منزلهم عندما وجّهوا مدافعهم باتجاه
القاهرة من فوق المقطم، ولولا تدخل العناية الإلهية؛ وتعاقد عرقين
من الخشب فوقها، لكانت في عداد الموتى الآن، تلك الفتاة خضراء
الساق تتعب من أيّ مجهود زائدٍ، لامت نفسها؛ لم يكن عليها أن
تأمرها بحمل المرتبة والصعود بها إلى السطح، ليبتها لم تطلب
منها ذلك وقامت هي به، حاولت إيقاظها، لم تستجب الصغيرة
لتوسلاتها، أطلقت الأم صرخة مدوية ظناً بأن ابنتها تحتضر، لم
يسمعهما أحد في ضجيج الاحتفال بتوليّ الباشا الجديد ولاية مصر.

(2)

الاحتفال

حمل أحمد بيرقه كفارس عائد مظفراً من حروب طويلة، أسرع في طريقه نحو الأزبكية، ازدحمت الطرق - المسقوفة بالحصر - بالباعة، الذين يفترشون جوانب السكك الضيقة بسلال الخضروات والفاكهة، الجميع في حالة من النشوة والتراخي، البائعون يسعون لبيع بضائعهم ولو دون مكسب؛ لعلهم يتمكنون من حضور احتفال الليلة؛ النساء يبراقعهن السوداء، التي تغطي وجوههن، ولا تظهر إلا أعينهن الحوراء الواسعة والتي حباها الله بجاذبية خرافية، لم يكتفين بذلك؛ بل زدنها جمالاً وفتنة بخط من الكحل العريض، الذي أحاط بالأهداب ليحوّل تلك العيون لسلاح طائش يُردي كلّ من حاول النظر إليه، أسرعن في خطاهن بأجسامهن الممشوقة، ترتجّ أردافهن في جميع الاتجاهات، في إغراء مثير، مع تلك التجاعيد العشوائية حولهن؛ بعد تضيق الخناق عليها بشدّ الملاءات التي

تلتف حول خصورهن، عليهن أن ينتهين من أعمالهن المنزلية عليهن يكسبن رضا رجالهن، ويصطحبوهنّ إلى الاحتفال المنتظر .

تجمّع الخلق من كلّ حدبٍ وصوبٍ، وسط هذا الزخم رفع الرجال أعلامهم الملونة، ووقف أحمد وسطهم ببيرقه، تحركوا كتلة واحدة يلوّحون بأعلامهم، تسبقهم دقات طبولٍ من كلّ نوع، ساروا في شوارع أمّ الدنيا الرئيسة فرحين؛ معلنين تأييدهم لمشايخهم وزعمائهم حتى وصلوا وجهتهم.

ازدحمت الأزبكية بكلّ الفئات؛ من الرجال والنساء والعجائز والأطفال، ضجّ المكان بأصوات الغانيات، ارتفعت أصوات المغنيين والمنشدين بالأهازيج، انتشر الحواة في الأرجاء، تحلّق حولهم البعض مندeshين من أعمالهم السحرية، سلاسل حديدية طويلة زُبطت في أعناق القروء، التي تتفافز في خفة مع ضربات خفيفة على الدُف، وتؤدي حركات مضحكة؛ نوم العازب وعجين الفلاحة، الكّل يعبر عن سعادته بطريقته الخاصة، البائعون ينادون على بضائعهم بصوت جهوريّ، بائعو البوظة جلسوا بقرعات فخارية متجاورين، وتوافد عليهم راغبو الجدل بتغيب عقولهم، على جانب آخر.. جلس بعض الرجال يدخنون الحشيش وقد غابوا عن وعيهم، جلسوا يتأملون الدخان الأزرق المتصاعد من الجوزة التي أمامهم، والبلاهة تملأ عيونهم المفتوحة، على قرع الطبول هزّت بعض الراقصات أجسادهن في ملابسهن اللامعة الضيقة وقد أبرزت مفاتنهن، وهناك

ليس ببعيد عنهن مجموعة أخرى من النساء تجتمعن حول بعضهن باحثات عن راغبي المتعة، المحظوظة منهن حصلت بالفعل على مبتغاها، وأخذت تبحث عن الطريقة المثلى لتحقيق أكبر مكسب منه، طُلاب معممين يبحثون في الخيام عن شيوخهم، اليوم رؤساؤهم أثبتوا لسلطان إسطنبول أنهم هم من يتحكمون في مصير بلادهم وليس بابہ العالی أو صدره الأعظم.

شَقَّ طريقه بصعوبة وسط الزحام، ورغم اختلاف الجمع وتنوعه إلا أن الفخر، والفرحة - بما حققه لهم شيوخ الأزهر - ظاهرة على قساماتهم، وطاغية على حديثهم، فهذا يُقسم بأغلظ الأيمان وهو يخرج الدخان الأزرق من أنفه في خطين متوازيين بأنَّ هناك صلة قرابة تجمععه بالشيخ «الشرقاوي»، وآخر يؤكد صلة النسب التي تجمععه بالسيد «عمر مكرم» بعد أن أفرغ قرعة البوظة في جوفه، وظهر أثر السكر على عينيه، بجواره تربعت امرأة مفترشة الأرض وأمامها موقد الجمر تشوي كيزان الذرة، تعلن تخوفها من «محمد بك الألفي»؛ الذي لا بد أن يعود وينتقم من الجميع، ويستولى على العرش الذي عاش يحلم به.. أكد على كلامها بائع الترمس، بعد أن ناول زبونًا أمامه قرطاسًا كنوع من أنواع المزة الرخيصة قائلاً:

- إنَّ «الألفي بك» لن يترك الحكم بهذه السهولة، خاصةً بعد ما بذله من جهد في مقاومة الفرنسيين.

وصل أخيرًا عند مجموعة من الطلاب الأزهريين، الذين جلسوا بعيدًا عن أماكن اللهو فوق ربوة صخرية صغيرة، جلس بالقرب منهم يستمع لنقاشهم الهادئ عن توقعاتهم لما هو آت، أكثر المتفائلين بينهم شاب في أواخر عقده الثاني، كان واضحًا من لهجته أنه من أهل «مراكش»، قال بأن الأمور قد استقرت في مُلك مصر المحروسة لمحمد علي باشا.. اعترض على رأي المراكشي طالب صعيدي يناهزه في العمر، قال بأن المماليك، وعلى رأسهم محمد بك الألفي المستقرّ في الصعيد ليس ببعيد عن الأحداث، وأنه ما زال يملك من القوة ما يستطيع بها مقاومة الباشا كما قاوم الفرنسيين من قبل، انبرى شاب آخر تبين لأحمد من لهجته وملامحه؛ بأنه من بلاد شرق آسيا، خرجت من فمه الكلمات ممطوطة، محاولاً أن يوضحها وهو يضغط على بعض الحروف، أنّ ما يقلقه ليس العثمانيون، ولا الأمراء المصريون ولا «محمد علي باشا» نفسه، فشيوخهم، الذين أتوا به، قادرون الآن على خلعهِ وتعيين غيره، وأنّ ما يؤرقه حقًا هم أهل الفرنجة الكفار؛ لأنّهم لم ولن يتوقفوا عن محاولاتهم للسيطرة على مصر من بعد أن دفعوا دية أسير دار ابن لقمان في المنصورة؛ «لويس التاسع» وأنّهم يحلمون بامتلاكها، فمصر بالنسبة لهم هي درة التاج التي يسعون جميعًا لاقتنائها بأيّ ثمن، ومهما كانت الخسائر التي قد يتكبدها في سبيل ذلك. لم يتوقف النقاش بينهم، فنهضوا وأكملوه في طريق عودتهم وتركوه يجلس وحيدًا وبعيدًا عن الضجيج والغوغاء.

تذكر أحمد ذلك العالم الفرنسي مسيو « فانسان»، الذي عمل عنده، وقتما سمع اسم أسير المنصورة، حيث يحلو له أن يسمى ملكهم البطل لويس القديس، عمل خادماً، وطباً لأحد علماء «بونابرت» لمدة عامين، تعلّم الفرنسية وأجادها، تدرّب وتعلم الطهي الغربي، أجاده وتفوّق فيه؛ حتى راق طعامه سيّده، وأشاد به، وافتخر به أمام زملائه، وكثيراً ما دعاهم لمشاركته طعامه، اعتبره البوابة الرسمية للمجتمع المصري؛ من خلاله تعرّف على الكثير من عادات وتقاليد ومعتقدات أهل مصر، لم يبخل عليه أبداً مقابل سنّين من العمل معه، تمكّن من إعادة بناء البيت الذي تقيم فيه عائلته الآن، وتعلّم لغة قد يستفيد منها يوماً، وطرفاً غريبة في الطبخ يستخدم في إعدادها الخمور أحياناً، لم تُزق أسرته عندما أعدّها لهم ذات يوم، بجانب صندوق مملوء بالأدوات العلمية تركها العالم له كذكرى، احتفظ به في إحدى زوايا الغرفة، وأولاه عناية فائقة للحفاظ عليه.

الغريب أنّه لم يرغب ولو لمرة أن يفتح الصندوق، أو أن يحاول أن يستفيد مما فيه، لمعت الفكرة في عقله هذه الليلة، عليه أن يفتح الصندوق، ويرى ما فيه، ويحاول أن يستخدمه كما اعتاد مسيو فانسان الفرنسي أن يفعل.

ترك الاحتفال تحت حماية العسكر، لم يتغير شيء فيهم؛ ما زالوا غلاظاً قساة كعادتهم، خاصة عندما فصّوا شجاراً بين رجلين،

ذهبت البوظة بعقليهما، كادت قوات الأرنأود أن تفتك بهما، وبكّل المحيطين من حولهما، لولا هروب الرجلين؛ لتحوّل هذا الحفل الشعبي إلى مأساة دامية، لا يعلم على من ستحلّ، لربما تقع الكارثة على أهل مصر أو على عاتق الباشا الجديد، لكنّ الله سلّم.

أكثر ما أبهر لبّ كلّ الموجودين وسيطر عليه؛ هو الألعاب النارية بألوانها الزاهية، التي أضاءت سماء القاهرة، وما أن انتهوا من إطلاقها حتى عزم أحمد أن يعود إلى منزله؛ ليرى ما تركه صديقه الفرنساوي، قبل أن يعود إلى موطنه.

من شارع «ظهر الجمال»، دخل الحارة الغارقة في الظلام، ومنها دلف إلى العطفة، التي في وسطها بيته الصغير، قرع الباب، أسرع فاطمة نحو الباب وهي تسأل في خوفٍ:

- «مَن الطارق؟».

تعجّب كوزنها متيقّظة حتى هذا الوقت، طمأنها بأنّه هو من في الخارج، فتحت له الباب، تقدّم يسبقه بيرقه، دخل غرفته وتبعته أخته، نظر إليها متسائلاً عن سرّ وجودها معه هنا، فابتسمت وهي تقول :

- عاد أبوك والتهم الأرنب وحده، واحتلّ مكاني إلى جانب أمي.

ضحك أحمد وهو يُجلِسها إلى جواره، تبسّمت وهي تسأله عن يومه ، فأجابها عن تفاصيل ما سمع وما رأى وعن الأقسام، الذين أضحكوه كثيرًا بحركاتهم الغريبة، وعن الشنك والحراقات والنفوط، حدّثها عن سماء القاهرة، التي أنارتها الألعاب النارية، بألوانها الزرقاء والحمراء والصفراء والخضراء، ولم يغفل أن يحدثها عن الشجار، الذي دار بين مسطولين، وكيف تعامل الأرناؤود معهما، وكيف أحزنه سوء معاملتهم وقسوتهم.

كادت أن تقع فاطمة في بئر النوم؛ حينها تذكرت أن تخبره بأنّ عليه الاستعداد غدًا ليستقبل خالتهما «لالا زار»³ وابنتها في بولاق، وستصلان وقت الظُّهر في موعدهما، كما يحدث كلّ عام؛ استعدادًا للرحيل لمولد البدوي في «طاندتا» (طنطا)، ذكّرته بمهمته، وذهبت في نوم عميقٍ.

طار عقله من الفرحة؛ اقترب موعد رؤيته لعائشة بنت خالته، كم يعشق السيد البدوي، وسيرته وحضرتة ومولده، وكيف لا يعشقه وهو من يجمع بينه وبين عائشة، حلم عمره، وأمنيته الوحيدة في هذه الدنيا؟! تلك الفتاة، التي تقارب أخته في العمر، يلتقي بها مرّات معدودة سنويًا، أطولها هي مولد البدوي، أغمض عينيه وهو يصرخ بداخله: «شيء لله يا بدوي».

3- اسم أنثى بمعنى حوض الزنبق

(3)

يد غليظة

عجَّ ميناء بولاق بالحركة، تجار، حمَّالون، حمَّارين، سماسرة، ولا مانع من بعض النشالين، ورغم انتشار الجنود في أرجاء المرفأ؛ لم يكن عندهم نية القبض على هؤلاء اللصوص؛ فالشركاء دائماً ما يتعاونون ولا يطاردهم بعضاً، على البوابات وقف رجال الشرطة يفتشون وينبشون الأحمال مهما صغرت، صجَّ التجار وهم يرون بضائعهم تُهدر على الأرض، رغم أنَّهم يدفعون ما عليها من مكوس وعشور.

تمكَّن الضيق من الحمَّارين والحمَّالين؛ فلو استمر الوضع على ما هو عليه؛ سيمرُّ اليوم بلا عمل يذكر؛ كادت الشمس تتوسط كبد السماء، والجنود يضيِّقون الخناق أكثر فأكثر، اقترب أحمد من رصيف الميناء، ووقف ينتظر، جو اليوم غريب ومتقلَّب، مثله

مثل مزاج حراس الأمن في الميناء، وكأنّ فصول السنة تجمّعت في
بضع ساعات، بعد أن أحرقت الشمس عظامه، اختفت فجأة خلف
سحابات من الرمال الناعمة، التي تحجب الرؤية.

رجّ كتفه الأيمن يدٌ غليظةً، كادت أن تقتلعها، التفت خلفه؛ وجد
جندياً ينظر نحوه شزراً، سحبه بعنف نحوه، حتى كاد أن يقتلعه من
على الأرض، خرس من هول المفاجأة، ولم ينبس ببنت شفه، نكزه
الجندي في صدره بهراوة في يده، وهو يسأله بصوتٍ حادٍ:

- ماذا تفعل عندك؟

الألم الحاد، الذي يشعر به الآن، يدعو للصراخ، نظرات الجندي
النارية دفعته أن يُخرج الكلمات متقطعة حارة، وكأنّها عرائض
شكوى لربّ السماء..

- أنتظر خالتي.

- من أيّ جهة قادمة؟

- من الجيزة يا سيدي.

- من أيّ داهية في الجيزة؟

وصلت إلى مسامع الجندي صوت صفارة مدوية قبل أن يستمع
لإجابة على سؤاله؛ التفت حوله ثم نحو البوابة الرئيسة للميناء،

حيث وقف زملاؤه في صفوف منتظمة، هرول في اتجاههم ماداً عنقه محاولاً اكتشاف الأمر، توقف فجأة وعدّل هندامه، وضع سيفه بجانبه وركض، في نهاية الصف وقف معهم في ثبات وصمت.

لم يصدق أحمد نفسه بأنه نجا من يد هذا الغاشم، دون أن يصاب بجرح غائر، أو يُكسر له سنًا أو أكثر، أو أن يحتاج لتجبير ضلوعه، أو يدفع له براطيل⁽⁴⁾، ومن أين له بالمال؟! وهو لا يجد عملاً، جلس على أرضية الميناء محاولاً أن يستعيد أنفاسه، حمد الله بأنّ خالته لم تصل وقتما وقع في قبضة ذلك الظالم، لو رأته عائشة وهو في موقف كهذا؛ قد تُغيّر رأيها فيه.

نظر خلفه في حذرٍ، في صفّين مُنتظَمين تراصّ الجنود على جانبي البوابة الرئيسة للميناء، في انتظار مرور والي الشرطة، وقفوا في خيلاء؛ غابة من الأشجار الضخمة، لا يعلم أحد شيئاً عن خوائها، مرّ من بينهم منفوخاً كديكٍ حبشيّ، نفخوا صدورهم، ورفعوا رؤوسهم؛ ضباع في انتظار أوامر قائد قطيعهم، تلقّت الوالي حوله، وأشار في اتجاهات مختلفة، وهو يتحدث وعلامات الصرامة واضحة على وجهه، تقدّم أكبرهم رتبة، وأشار في اتجاه اليمين من الميناء، تقدم زعيمهم حيث أشار الجندي، تبعه دون تردّد، تحرّكوا

4 - رشوة.

خلف قائدهم، توقف عن السير، أوماً للبقية بأن يعودوا لعملهم،
وطلب من جنديين فقط أن يلحقا به.

تحامل أحمد على نفسه، ووقف على الفور، فَوَجَّهُ والي
الشرطة لا يندر بأيّ خير، سار بشق الأنفس، وتحرك رغم الألم
الذي يعانيه؛ جلس خلف حائط خشبي قريب، في خفية أخذ
يراقب الموقف، دون أن يراه أحد، عاد الجنود إلى ممارسة
مهامهم المعتادة؛ تحصيل البراطيل من الخلق، ومَن يَرِفُضُ دَفْعَ
المطلوب؛ تُنبش بضاعته، وتُتلف بطرقِ عِدَّةٍ على حسب نوعها،
في وسط هذا اللغط، لاحظ أنَّ أحدهم لا يقترف أفعالهم، وقف
أمام بوابة جانبية بطوله الفارع وسلاحه اللامع، تعجّب الجالس
خلف الحائط عندما عرض عليه تاجر قصير بعض الدراهم؛ رفضها
بهزّة خفيفة من رأسه، بعدما قَلَبَ شفته السفلى في امتعاض،
فتش تَلِيْسَهُ بحرصٍ دون أن يتلف ما فيه، وأعاد له، وسمح له
بالمرور، بعد أن رماه بنظرة لم يتمكن المختبئ خلف الحائط من
تفسيرها؛ أهَيَ نظرة شفقة أم احتقار؟!

توقف عن متابعة الجندي، وانتبه للجَلْبَةِ القادمة من رصيف
الميناء، ضيق بين عينيه، حتى يشاهد بدقة ما يراه، نادى الحمّالون
على بعضهم، مركب من الجيزة محمّلة بالبضائع وصلت للتو، وقف
خلف الحائط في حذرٍ؛ أطلَّ برأسه ناظرًا خائفًا من أن يراه أحد

5- التليس: كيس من الخيش.

الضباع؛ فيحتكُ به مرة أخرى، كما حدث منذ قليل، مرَّ الوقت وفَرَغَ الحَمَّالون السفينة، دون أن يظهر لخالته ومن معها أيُّ أثرٍ، قد يكون منعهم مانع من المجيء اليوم، وسيحضرون غداً، تجراً وخرج من مكنه متحرزاً، فلا خوف من أن يراه أيُّ شرطي مغادراً الآن، وضع شاله الصوفي القديم على رأسه، واتجه نحو البوابة الجانبية الصغيرة.

اقترب من البوابة خافضاً رأسه، توقف فجأة عندما سمع صراخ رجل يملأ المكان، وفرقات الفرقة تدوي في أذنه؛ تسمر في مطرحة، خرج قائد الضباع، والجندي الكبير، والجنديان الآخران يدفعان أمامهم رجلاً، يحمل تليساً على ظهره، أفرغوا محتوياته أمام الوالي، أحذية عسكرية طويلة الرقبة تناثرت على الأرض، في الحال تجمّع القطيع حول الرجل، وانهاهوا عليه ضرباً، وهم يكيلون له السباب، نظر أحمد بطرف عينيه نحو الرجل المنبطح على الأرض، والأقدام تركله في كل مكان يمكن الوصول إليه من جسده، وحبال الفرقة لم تترك مكاناً في جسمه، إلا وتركت أثرها عليه، وقف مذهولاً مما يرى، قارن بين معاملة الفرنسي الكافر له، ومعاملة هؤلاء المسلمين لفريستهم، شعر بلكزة خفيفة على ظهره تدفعه للتحرك، وصوت صارم يخترق أذنه:

- لماذا تقف هكذا؟

نظر خلفه، وجد الجندي، الذي رفض البراطيل من التاجر القصير، نظراته الحادة تستعجل الإجابة على سؤاله، تلثم وهو يجيبه:

- لا شيء.

- هل تعرف هذا الرجل؟

وأشار نحو الرجل الملقى على الأرض، والأقدام تتزاحم عليه لركله، أجاب بسرعة نافيًا التهمة عن نفسه:

- لم أره من قبل مطلقًا.

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- كنت في انتظار قدوم خالتي من الجيزة، يبدو أنها لم تتمكن من المجيء.

- عليك الرحيل من هنا، ما اسمك؟

- أحمد سالم المرجاوي.

- أسرع في المغادرة، فكما ترى والي الشرطة هنا، بعد أن أبلغنا عن القبض على هذا التاجر، الذي حاول تهريب بضائع للمماليك،

سوف أغمض عيني وأفتحهما؛ بعدها لا أريد أن أراك في الميناء أو
حتى بالقرب منه.

هَزَّ رأسه موافقًا، وأطلق لساقيه العنان، مسابقًا الريح، حمد ربه
بأنَّ اليوم قد مَرَّ على خير، رغم الألم الذي ما زال يطبق على صدره.

(4)

الثَّار

على أريكة وثيرة جلس يدخن نارجيلته الفخمة، المصنوعة من البُلُور البلجيكي الفاخر، متأملاً سُحب الدخان المتصاعدة، مدد ساقه اليمنى، وثنى اليسرى قليلاً أمامه، يبدو على عينيه الإجهاد والتعب، سنوات من التمني والترحال تتسرب من بين يديه كرمال ناعمة، يخاصمه النوم إلا ساعات قليلة كل ليلة، وكما تمنيه أحلامه بحكم مصر، تطارده كوابيس من استولى على عرش البلاد.

تولت جارية روميّة وضع الجمر على الحجر الفخاري للنارجيلة، أحاطت الهموم بسيدها إحاطة الدخان لحجر نارجيلته، نظر نحوها، وأشار إليها بوجه عابث بأنه انتهى من التدخين، توقفت عن وضع الجمر على النارجيلة ذات المبسم الذهبي، وغادرت الغرفة في صمت.

اعتدل محمد بك الألفي في جلسته، الملل يحتل حياته- ورغم ذلك- فشل اليأس في التسلل إلى قلبه، وكيف يقنط وهو من عجز الفرنساويون الكفرة عن القبض عليه؟! كبدهم خسائر لا حصر لها، وهم سادة الحروب الحديثة ومعلموها، حيرهم وأجهدهم حتى طردوا من مصر على سفن أصدقائه.

استأذنه أحد حراس ديوانه أن يدخل عليه كاشف الفيوم، أشار له بالموافقة، في لحظات قليلة وقف الرجل ماثلاً أمامه في ملابسه العسكرية المزركشة، بادره بالسلام، نظر نحوه الألفي بك، وتبسّم وهو يرد عليه السلام، أشار له بالجلوس، جلس بجانبه في تأدّب، نظر نحو معلمه، أقلقه ما يرى، ملامح القلق والضجر واضحة على وجه سيده، أراد أن يطمئن ويخفف عنه، بادره بالقول:

- تبدو مهمومًا يا سيدي!

- كل ما حولي يدعو للحزن.

- رُوِّحْ عن نفسك يا مولاي، من نصرك من قبل؛ قادر على نصرك اليوم.

تنهد الأمير المصراطي من عمق قلبه، نصره الله كثيرًا، حتى شعر أنه غير قابل للهزيمة، منحته ثقته قدرة خرافية على تجاوز المصاعب والأهوال، وبثّ الرعب في نفوس منافسيه وحاسديه، شعر مملوكه بأن كلماته هذه لم تف بالغرض المرجو، حاول أن يغيّر

مجري الحديث؛ علّه يتمكن من الترويح عن أستاذه..

- هناك سؤال يحيرني، فهل تفضّل بالإجابة؟

- سل ما شئت.

- عندما أقارن بينك وبين أستاذك أجد الاختلاف بينكما كبيرًا...

قاطعته الألفي قبل أن يكمل سؤاله، فهّم مقصد الرجل، وضع رِجله اليسرى على اليمنى، ليتقاطعا قبل الركبتين بقليل _ يستريح كثيرًا في تلك الجلسة _ أرجع ظهره للخلف، تنهّد لتذكّره أستاذه، الذي دفع فيه ألقًا من الغلال كهدية مقابلة لسليم أغا الغزاوي، نظر نحوه فاسعت ابتسامته، والكلمات تخرج جزلة من فمه:

- هل تعلم لماذا أحبّني مراد بك؟

- هذا ما يحيرني رغم اختلافكما الواضح.

- لم يتقن أحد من تلاميذه فنون القتال مثلي، ومع هذا لم يكن ذاك هو السبب الحقيقي ليقربني منه ويعتقني بعد ذلك.

تعجب الرجل من حديثه؛ صمت الألفي.. مجرد إشارة لكي يسأله عن السبب فهذا هو أسلوبه، والرجل يفهمه جيدًا فبادره بالسؤال:

- الكلّ يردد أنّ مراد بك رحمه الله أهدى ألقًا من الغلال لسليم

أغا الغزاوي ردًا على إهدائه إياك، هل حدث هذا حقًا؟

- نعم، فعل، الكل يعرف هذه الحكاية، ويعلم أنّ هذا هو السُرّ وراء تسميتي بالألفي، لكنّه لم يحبّني أيضاً لأنّه دفع فيّ الكثير.
- ربما أحبّك لأنّك رفضت المعيشة مع المجنون.

ضحك كثيرًا عندما سمع هذا الاسم، لم يستطع أن يستجمع نفسه، إلا بعد أن سعل سعلات طويلة وحادة، خلّصته من الكثير من البلغم القابع في صدره، تمالك نفسه ونظر نحو الكاشف، الذي احمرّت وجنتاه من السعادة؛ لأنّه أخرجه من عبوسه، أخذ الألفي شهيقًا عميقًا، أخرجه على مهلٍ، عاد وجهه للونه الطبيعي بعد أن تحوّل إلى الأحمر القاني إثر سعاله الحاد، وضع مبسم نرجيلته في فمه، سحب عدّة أنفاس قصيرة متتالية، ثم نفّسًا طويلًا ليعيد حجر النرجيلة إلى الحياة مرة أخرى قبل أن يعاود حديثه:

- هل تعلم أنّي من طلبت من أحمد جاويش بك أن يبيعي؟

- حقًا!

- نعم، لقد كان جاويش هذا أو المجنون كما يحلو لي تسميته، قذرًا بطريقة لا يمكن وصفها؛ لم أتحمّل يا رجل رائحة منزله، رائحة الخمر، وعرق النساء، وتنن الدم ينبعث من كلّ مكان، صراخ النساء، والغلمان لا ينقطع طوال الليل، هو مجنون فعلاً، وجنونه ومجنونه يصل لحدّ السفه.

- فباعك للغزاوي بك كما طلبت؟

- لم أطلب بيعي للغزاوي بك بالتحديد، لم أكن أعرفه في هذا الوقت.

- لم تُجِبْ على سؤالي بعد.

- مراد بك أحببني لأنّ الناس تكرهني، هل تصدق ذلك؟!

ختم جملته، وانخرط مرة أخرى في نوبة من الضحك العصبي، بعد لحظات قليلة، رجع لنفسه وأكمل حديثه:

- أتذكّر يوم غضب عليّ لأتّي ضربت هذا المملوك، الذي لا أتذكر اسمه الآن، ومات بعد بضعة أيام، نفاني لكفر الشيخ طلحة عقاباً لي، هناك فعلتُ ما يحلو لي فعله، جمعتُ الكثير من الأموال انتقاماً منه لنفسي، ولأشتري ممالك أكثر، قدّم الأهلالي الكثير من الشكاوى له، لكنه لم يحرك ساكناً؛ وقتها فقط شعرتُ بحبه لي.

- لهذا أصبحتُ سنجقاً؟

- لا، حدث هذا عندما اتفق الأمراء على نفي الأمير مصطفى إلى الإسكندرية، ولم يجرؤ أحد على مرافقته إلى منفاه، كنتُ سبّاقاً، وتقدمتُ بكلّ شجاعة لإنجاز المهمة.

- وهل نجحت في مهمتك؟

- نعم، وطلبْتُ منه كشوفيةَ الشرقيةِ كمكافأة.

اندهش الضيف عندما علم أنَّها كانت من اختياره، وليست
فرصًا من أستاذه، تساءل متعجبًا:

- مع أنَّهم أهلُ إغارةٍ وسلبٍ ونهبٍ! لماذا اخترتها في حين كان
بإمكانك اختيار مكان أفضل؟

- بالعكس هذا هو ما دفعني لأن أختارها، فلا يفُلُّ الحديد إلا
الحديد، كنتُ أهوى عملَ الشراك لهم؛ كم استمتعتُ وهم مكبلون
بالحديد ويتوسَّلون راجين رحمتي وعفوي.

- يبدو أنَّ ما مارسته هناك ساعدك كثيرًا في مقاومة الفرنسيين

- بالطبع، فقد ضربتُ عصفورين بحجر واحد، تدربتُ على تلك
النوعية من الحروب، وبسطتُ نفوذي على عربانها.

توقف عن الكلام عندما شَعَرَ بمرارة في حلقه؛ ربما من أثر
الدخان، أو لشعوره بالندم على كثير من أفعاله في الماضي، طلب
أن يُحضروا لهما بعضًا من القهوة والحلوى، في الحال كان كل ما
أمر به أمامهما، تحمله جارية ذات ملامح مثيرة، وقوام ممشوق،
ونهدين نافرين.

التخبُّط الذي أحاط الألفي بادٍ عليه، رغم أنَّه يُحكِم قبضته
على رجاله، والكثير من العربان يتبعونه، إلا أنَّ أمراء مصر انفضوا

من حوله، تشرذموا في فضائها الواسع، أغبياء كغبائه عندما كان غرًا، تمادى في ظلمه وغيّه، حصد الطاعون من رجاله وأتباعه ما حصد، في لحظات قليلة يتحوّل الفارس منهم لمجرد جثة، تعلّم من الموت كيف يحبّ الحياة، ويتمسك بها؛ فهي تستحق أن يخوض الحرب تلو الحرب ليحيها كما يروق له.

صبّت الجارية القهوة لسيدها وظيفه، ثرثر الضيف كثيرًا، مبالغًا في وصف مناقب المضيف، ابتسم له في تودد مصطنع، عقله في مكان آخر؛ هناك في القلعة حيث العرش، الذي كان قاب قوسين منه، كانت كلّ الظروف مهياًة تمامًا لأن يعتليه، وعلى حين غرّة يظهر هذا القراقوز الألباني ليبعده عنه، أغمض عينيه فرآه بعينيه الواسعتين، ولحيته الحمراء الكثية، يُخرج له لسانه، فتح عينيه؛ ليجد ذاك الثرثار مستمرًا في حديثه، أشار إليه بأن يصمت، فهم الكاشف الرسالة دون عناء، فشكره وأذن له بالانصراف.

وضعت الجارية القهوة جانبًا، واقتربت من سيدها محاولة أن تحظى به في ليلتها، دون أن ينظر نحوها، أشار لها بأن ترحل في صمت، رحلت خارجة من القاعة، مصممت شفيتها الحمراءوين، ورفعت حاجبها الأيمن في سخرية، بعد أن ابتعدت عن باب القاعة، لطمت خدها برفق، متحسرة على فرصة ضاعت منها، فقد لا تسنح الأقدار بمثلها.

(5)

زغرودة فرح

وسط الزحام الشديد وتدافع الناس، صعبت مهمة أحمد في أن يصل لحمار، تصبب العرق من جسمه النحيل، أنهكه اللث على الحمارين، تأكلت قدماه من المشي، وهم لا رحمة ولا شفقة، أسعار تأجير حمار صغير ازدادت ضعف ما كانت عليه في العام السابق، كل شيء تضاعف سعره رغم الفقر، الذي عم البلاد وانتشر.

وأخيرًا تمكن من الفوز بواحد واستئجاره، قد يبدو ضعيفًا للمهمة المطلوبة، لكنه على كل حال سيفي بالغرض، رفض الجميع قبول هذا الجحش، وهو كافٍ بالنسبة لرحلة السيد البدوي، تهاود صاحبه في أجرته، امتطاه ومشى به كفارس منتصر، عائد من حرب عظيمة، فخور جدًا بنفسه وبغنيته.

أمام البيت كان الجميع في استقبال فارسهم المغوار، قفز من على ظهر حماره في حركة استعراضية، كاد أن يرتطم بالأرض، لولا يد والده التي أمسكته، كادت «عائشة» و«اللا زار» أن تقعا على الأرض من الضحك على فارسهم، تسلّم «سالم» الحمار، ووضع أمام العربة الكارو، التي أعدّها من قبل، وربطه بها.

كان عندهم حمارٌ من قبل، قويٌّ وضخم، اشتراه الأب جحشًا صغيرًا، تولّى أحمد رعايته، وعامله كفرد من أفراد العائلة، لكن الأتراك سرقوه في تجريدة⁶ الحمير، لم يجد العثمانيون ما ينقلون به آلات حربهم ضد المماليك؛ فجمعوا كلّ حمير القاهرة، لتساعدهم في مهمتهم، في تلك الأيام وصلت الأخبار له.. بأنّ العساكر يخطفون الحمير من مالكيها. أخفى حيوانه العزيز داخل البيت، بعد أن كان يربطه خارج المنزل، لكن هيهات، يتذكّر جيدًا عندما وقف عسكري تركي طويل بطربوش أحمرٍ قانٍ، منتفخًا وهو يصرخ أمام بيتهم بصوت مفرع: (زر).

لسوء حظهم، ارتفع نهيق الحمار من الداخل؛ فهجم العسكري على البيت، وسحبه خلفه أمام عينيّ أحمد، لم يستطع أن يمنعه، لو أقدم على هذا؛ لأرداه قتيلاً، فرح جميع من سُرقت حميرهم عندما هزّم محمد بك الألفي الأتراك، رغم أنّ هذا الانتصار لم يعوّضهم ما فقدوه، أو يعيد لهم حيواناتهم، التي تشاركهم وتقاسمهم صفة الصبر.

6-تجريدة: حملة عسكرية.

فشل أحمد فيما نجح فيه «مقبل» جاره، أخفى الحمار داخل منزله، حكى له كيف تمكّن من هذا، وضع قطعتين من القماش في أذني حماره، وهكذا نجا من السرقة، وها هو يعدّ عربته هو الآخر ومعه حماره، ستترافق العائلتان في الطريق ككلّ عام.

على بوابة السعادة وقف صف طويل من عربات الكارو، والحمير، والجمال، تحرك الصف ببطء متناهٍ، وجلس أحمد بجلباب قديم رصاصيّ اللون على إحدى العربات، وفي يديه حبل سرعة الحمار على الطرف الأيمن للعربة، ذات العجلات الخشبية، في وسط العربة جلست أمّ أحمد وأختها «لالا زار» يتبادلان ذكرياتهما عن رحلتها السنوية إلى طاندا، في الخلف جلست فاطمة وعائشة تتبادلان أطراف الحديث، وعين بنت الخالة لا تكفّ عن النظر على ابن خالتها؛ قائد الرحلة.

استرق أحمد النظر نحو بنت خالته، تأمل عينيها السوداوين، وحاجبيها المقوسين، الدّين زادا عينيها اتساعاً، لاحظت عائشة نظرات ابن خالتها، التي تكاد أن تلتهمها في تلذذ ورفق؛ فاحمرت وجنتاها خجلاً، حاولت فتح حديث مع فاطمة، التي غمزت لها بعينيها، وأومات برأسها نحو أخيها، ازدادت حمرة وجه عائشة، فدفنت رأسها بين رجليها، تعالت ضحكات فاطمة والمرأتين، عاود أحمد النظر أمامه منتبهاً للطريق، كما أمرته أمّه، وعلى وجهه ابتسامة رضا.

تَحَرَّكَ الصف بعض الخطوات، فجأة حَلَّ الهرج والمرج في المكان، فقد قبض أحد العساكر على تَلْيَس مملوء بملابس لجيش المماليك، لم تُجدِ البراطيل؛ لأن التعليمات مشدّدة، ومن يخالف التعليمات، أو يتقاعس؛ لا يعرف ما سيحدث له في سجون الباشا. تعطلت المسيرة بعد أن أحكم الجنود إغلاق البوابة، عاثوا فسادًا في ممتلكات الناس، نبشوا كل ما تصل إليه أيديهم، أتلفوا الطعام، الذي أعدّه المغادرون لمولد البدوي، ألقوا النذور تحت سنانك خيولهم، ضربوا الرجال وسبوا النساء.

تلقت أحمد حوله في قلق، كان طعامهم قليلًا، يكفيهم بالكاد؛ بعض الخبز الملدن، عسل أسود، والقليل من السمن، وقطع من الجبن القديم، لو فقدوا مؤونتهم؛ سيعودون دون أن يزوروا المقام، الذي اعتادوا زيارته كل عام.

ضج المكان بغضب الجنود، تعالت أصوات الفرقلات على صوت همهمات الناس، زاد جموح حراس البوابة، وجالوا ظلمًا بين المسافرين، كل من حاول أن يمنعهم، ولو بكلمة أو رجاء؛ مصيره الضرب المبرح، التصقت فاطمة وعائشة بأميهما، زاغت نظرات الجميع، قفز أحمد من فوق العربة، وجرى نحو جندي يقف بالقرب من البوابة، ووقف أمامه في احترام مبالغ فيه، انحنى على يده ليقبلها، نزعها الجندي منه برفق، رفع أحمد رأسه، فابتسم الجندي وهو يربت على كتفه:

- أنتَ أحمدَ المرجاوي، أليس كذلك؟

اندهش أنه يتذكر اسمه، أجاب على الفور:

- نعم، يا سيدي.

- كنتَ في انتظار عمّتك أو خالتك في ميناء بولاق من يومين؟

- نعم يا سيدي.

- هل حضّرت؟!

- نعم، عندما عدتُ إلى المنزل وجدتها هناك، يبدو أنها مرّت دون أن أراها.

وماذا تريد يا مرجاوي؟

- أتوسل إليكم أن نمزّ من البوابة دون تفتيش، أو أن تفتش متاعنا أنتَ إن تكّرت.

أشار الجندي لأحمد أن يسبقه، جرى أحمد نحو العربة، والضّفرة ما زالت تعلو ملامحه، اقترب من العربة، في عجلة ألقى الجندي نظرة على متاعهم؛ قطع من الجبن القديم، وعروق الكرنب المغموسة في المِش الأصفر المعتق، أرغفة خبز يابسة عجنتها، وخبزتها أمّ أحمد من دقيق الذرة، وبعض حبّات البصل، أشار لأحمد بأن يتجه نحو البوابة، ورجاه أن يفتّش عربة عائلة «مقبل» جاره، نظرة واحدة صارمة كافية بأن يعتذر عن طلبه، ويسرع في عبور البوابة.

شقت العربية طريقها بصعوبة بالغة نحو البوابة، سحب أحمد الحمار، ونكزه لئيسرع؛ فكلما حاول جنديّ التعرض للعربة، أخبره الجندي بإشارات من يده بأنه فتشهم، ولم يعثر على شيء مخالف، وأخيرًا مرّوا من البوابة، رفع يده نحو الجندي شاكرًا إيّاه، لكنّه أغلق البوابة دون أن يردّ التحية.

أطلقت «لالا زار» زغرودة فرحة؛ بأنّهم مرّوا من هذه الغمّة على خير، حث أحمد الحمار على الإسراع، تمنى أن يطوي الأرض طيًّا؛ ليصلوا إلى طاندتا في ثوانٍ، الطريق طويل، والشمس أوشكت على المغيب، جدّ في المسير قبل أن يحلّ الليل، بعد ساعات قليلة سيكون التحرك على الطرّق أمرًا خطيرًا، حتى لو كنت تسير مع قافلة، على بُعد رأى قرية صغيرة؛ تنفس الصعداء، سيبيتون ليلتهم على أعتابها.

على أطراف القرية تراحم الكثير من المسافرين، تجمّعوا في حلقات وأشعلوا النيران وجلسوا حولها يتسامرون، وبالقرب من عائلة صغيرة أوقف أحمد العربة، وألقى عليهم السلام؛ فرحّبوا بهم، نزل ثم أنزل أمّه وخالته، وبرفق تناول بنت خالته من خصرها، تلاقى عيناها بعينيها من تحت البرقع، ارتجّت أنفاسهما، تمّنى أن يضمّهما، ويُدخلها في ذاته ويتوحّد معها، يصبحان جسدًا واحدًا، انتظرت منه ذلك، لو فعلها؛ ما منعت، رغبتها في أن يمتلكها وتمتلكه كانت قوية؛ لدرجة أنّها نسيّت كلّ من حولها، لم تع وجود أمّها، لم تهتم

بنظرات خالتها، لم تخجل من نظرات الناس حولها، ولا ضحكات الشباب المسافرين، و صفيهم العالي، وكزات يد فاطمة على كتف أخيها كانت كفيلة بإنهاء الحلم الجميل، هبطت من سحابتها العالية، سحب يده بخفة من جانبي خصرها وضغط عليه، تمنّت أن يكونا وحدهما في هذا الكون، حسدت أمّها حواء على وحدتها مع آدم، كم كانا سعيدين قبل أن يأتيها بكلّ هذا الخلق لهذا العالم.

(6)

شيطان الغيرة

قبل أذان الفجر بقليل، أفاق أحمد من نومه على صخب، تَلَفَّت حوله؛ وجد زورقًا تصدح منه الموسيقى، وضوء فوانيسه الباهرة الملونة تنعكس على صفحة النيل، اقترب من الشاطئ فَرَأَى ثلاث راقصات، شبه عاريات، يرقصن في مجون أمام بضعة رجال، قد ذهب الخمر بعقولهم، إحداهن سمينة ممتلئة، ثانيا بطنها تتدلى أمامها، مع أقل حركة منها يرتج لحمها، وكأنه يتردد في السقوط من على جسمها، نامت على سطح المركب الصغير، غارقة في إيماءات فاضحة، زادت من حركاتها، وغاص الرجال في الضحك، حتى كاد أن يقع أحدهم من على المركب، في مقدمة الزورق راقصة قصيرة إلى حد ما، لم تكن ترتدي إلا ما تستره ورقة التوت، صبغت شعرها باللون الأحمر، أو هكذا رآه أحمد في ضوء المصابيح الصفراء، التي تضيء المركب من الأمام، تعلقت عيون الرجال كلهم بالراقصة

الثالثة، والتي كانت متوسطة الطول، شعرها الأسود الطويل الناعم التصق بعضًا منه بظهرها إثر العرق، الذي يندّي جسمها الخمري، ترقص بدلالٍ بالغ أثار أحمد، أثناء متابعته الزورق وهو يبتعد رويدًا رويدًا من أمام ناظره.

إنّبه لنفسه عندما وجد مجموعة من الشباب يقفون بجواره، يتابعون الموقف مثله، بل إنّ بعضهم تتبع الزورق؛ ليمتع نظره بتلك الفاتنة ذات الشعر الناعم، تَلَفَّت حوله، وجدهم جميعًا هائمين في خيالاتهم، مدّ أحدهم يده في شِقِّ جلبابه؛ يداعب قضيبيه في تلذذٍ وبلاهةٍ، داهمه الخجل، وقرّر العودة ليكمل نومه، رجّت تكبيرات أذان الفجر نفوس الهائمين، وأيقظت من لم يحظَ بمتابعة الزورق، انتشروا خلف الأشجار، وبين البوص، لقضاء حاجتهم، ثم عادوا مسرعين إلى النيل للوضوء، اغتسلوا بماء حَمَلٍ لهم المعصية من قبل؛ ليتخلّصوا من ذنوب فتنتهم منذ قليل، اصطفّوا وراء كهلٍ ذي لحية طويلة بيضاء، ووجه أسمر، وظَّهر معقوف، رفع أحمد عقيرته ليقيم صلاة الفجر، ومشهد الراقصة الخمرية يتحرك أمام ناظره.

عاد لعائلته، وجدهم أفاقوا من نومهم، نظر لوجه أخته، الذي كاد أن يضيء من البياض والجمال، ألقى نظرة على وجه عائشة، فوجد النور يفيض من وجهها هي الأخرى، لا تقلّ جمالاً عن أخته، مع جسم نافر يسابق عمرها، لمعان عينيها يكاد يفضح حبّها له، وحمرة شفتيها تدعوه لتقبيلهما، جلس وسطهما؛ فالتفّوا في

شبه دائرة حول قطعة من الجبن القديم والخبز الجاف، جمعت عائشة وفاطمة بعض الخضروات الورقية، التي نبتت على أطراف حقلٍ قريبٍ، جلس وسط أخته وأمه وبادلهم تحية الصباح، مد يديه ليتناول كسرة خبز، وفجأة تذكر الحمار المسكين الذي يجرّ عربتهم، لا بد أنّه هو الآخر جائعٌ، فعاد لضفة النيل، جمّع حشائش كافية له، وضعها أمامه وعاد مسرعًا، ليستقر بين أمه وعائشة، وعيناه مُعلقتان على شفتيّ ابنة خالته، اللتين تتحركان في رتابة مثيرة، وهي تمضغ طعامها.

قبل أن يلمع النهار، تحرّكوا جميعًا في شبه قافلة، نظر حوله يتبيّن هل تمكّن جاره مقبل من اللحاق به؟ لكنّه لم يستطع أن يراه وسط هذا الغبار، الذي تثيره الحيوانات، وهي تدب دبيبًا لا يتوقف نحو المولد في وسط الدلتا.

قبل أن تتوسط الشمس كبد السماء، مزّوا بجوار الزورق الماجن، سكنت الموسيقى، نامت الفرقة الموسيقية تحت مكان ظليل، ارتمى الرجال نائمين بجانب الراقصات، تحت لهيب الشمس، بعد أن أنهكهم اللهب، وأفقدهم الخمر وعيهم، بحث أحمد عن ذات الشعر الناعم، التي فتنته منذ ساعات قليلة، وجدها نائمة في أحضان رجل، فحاول أن يتبيّن ملامحها، لم يتمكّن من ذلك، لاحظ أنّها شديدة القصر عمّا كان يتصوّر عندما رآها لأول وهلة، كما أنّ بشرتها كالحبة لا جاذبية فيها، وشعرها الطويل ليس بالأسود، ولا هو ناعم، على العكس كان كستنائيًا شديد التجعد.

لاحظت فاطمة انشغال أخيها بالنظر نحو الزورق الطافي على وجه النيل، وكزت عائشة منبهة إياها لما يدور حولها، غلى الدم في عروقها، وسرت سموم الغيرة في جسدها، طاش عقلها، قامت غاضبة من فورها، وجلست إلى يساره لتحجب رؤية النهر وما فيه عنه، وقد تملكها الغضب، وبادرتة وهي تحاول أن تخفف من حدة صوتها:

- إلى ما تنظر؟

تنبه أحمد من شروده، ولم يجد ما يجيب به، رسم على وجهه ابتسامة ساذجة، وهو يرد:

- لا شيء.

نظرت عائشة خلفها نحو الزورق، الذي تجاوزوه بقليل، وأشارت نحوه وهي تكثر شفيتها، فزادت تألقًا:

- من فيهن تعجبك؟ تلك الشمطاء الهزيلة أم هذه السمينة التي تشبه البقرة؟

- لا أحد، كنت أتأمل فقط مياه النيل.

- عليك أن تستدير الآن وفورًا، لا أريد أن أذهب لطانتدا هذا العام.

نظر أحمد نحوها، والدهشة طافية على عينيه، وتساءل بصوت حانٍ:

- ماذا حدث لكّل هذا؟

- ألا تعرف ماذا حدث؟

- لا، لا أعرف، أخبريني أنتِ.

- تنظر لتلك الغانيات وتساءل في براءة مصطنعة ماذا حدث؟

دقّ قلب أحمد من الفرحة، غَيَّرَتْهَا عليه ما هي إلا علامة من علامات الحبّ، زاد جنون الغيرة قلب عائشة احتراقاً، أردفت طالبة في إصرار:

- عُد بنا الآن كما أخبرتك.

- لا لن نعود، ولم أكن أنظر لتلك النسوة، وكيف أنظر لهن وقد أعمى نورك عينيّ!

انفرج فمها عن ابتسامة أخفتها بسرعة، وعادت لتقطب ما بين حاجبيها، وهي تهدّد:

- لو حدث ذلك مرة أخرى ستعود بنا إلى مصر، مفهوم؟

- لم يحدث من قبل ليحدث بعد ذلك، ومع ذلك، نعم، مفهوم.

أشاحت بوجهها بعيداً عنه، في حين تعالت ضحكات الأمهات في الخلف، تلك الضحكات التي كتمنّها منذ فترة طويلة، منتظرات نتيجة النقاش الهامس بينهما، أشار أحمد لها بأن تعود لمكانها، فقد اقتربوا من الصندل الذي سيعبر بهم النيل، أوشكت رحلتهم على الانتهاء، ساعات قليلة ويكونون على مشارف أعتاب البدوي. توقفت القافلة في انتظار عودة الصندل من الضفة الأخرى، لا نظام يرتب هذا الزحام، الرغبة في السبق هي المسيطرة، حتى لو كنت آخر الواصلين، مما يؤدي للكثير من المشاجرات، التي تبدأ بصوت عالٍ يتحوّل إلى سباب، تزداد حدّة الموقف فينقلب إلى تهديدات بالاشتباك بالأيدي، وبعد تدخلات من بعض الحكماء يتحول الشجار إلى حلّبة من التعارف.

في وسط هذا الزحام ففز أحمد من العربة وتلقّف الجرّة الفخارية، وذهب نحو الشاطئ، الصندل لم يرش بعد على الجهة المقابلة، والوقت وافر لأن يملأها؛ انحنى وغمّسها كلّها تحت الماء، تأمل محاولات الهواء للهروب من داخلها على شكل فقاعات متتالية، لاحظ نظرات عائشة تراقبه عن كثب، لو لمحتة ينظر لغيرها ستغرقه في ماء النيل هو والجرّة، وكلّ من يعترض على هذا، هكذا حدّثها شيطان غيرتها الجامح.

عاد إلى العربة ووقف ينتظر دوره، عاد الصندل واستقر، وتدافع الجميع نحوه، مرّ «أحمد» بعربته على الرصيف الخشبي الضيّق

في طريقه نحو الصندل، وبعد العديد من المحاورات، التي يتقنها،
شَعَرَ بأنَّ هناك عيوناً تراقبه، إنها ليست عيون عائشة، مراقبتها له
تثير في داخله مزيجاً من المشاعر المحببة المغلفة بالطمأنينة،
هذه المرة يشعر بنوع من القلق والريبة، تَلَقَّت حوله محاولاً أن
يتبين صدق حدسه، الذي لم يكذب عليه من قبل، لم يستطع
تبيين ما يُزبكه، في دقائق امتلأ الصندل، وقف على عربته جاهداً
أن يكتشف من يراقبه، جذبته عائشة من طرف جلبابه بقوة لأسفل،
كاد أن يفقد توازنه، ويقع على وجهه، لكنَّهُ تمالك نفسه وجلس،
وكما كانت الغيرة تحرق قلب ابنة خالته من قبل، اشتعلت نار
الغيرة في جسد أحمد الطويل الممشوق.

(7)

رصاصات عشوائية

أعاق الزحام خلف المسجد البدوي أحمدَ مِنْ أن يشقَّ طريقه،
وسط تلك الضوضاء سمع من يناديه، تَلَفَّتْ حوله، لم يستطع أن يجد
مصدر الصوت، تكرر النداء؛ جعله يقف على العربة مرة أخرى،
يستطلع من يناديه، على بُعد أمتار قليلة وجد «مقبل» يلوِّح له
بحماسٍ، يشير له بأنَّه حَصَلَ على خيمة، وحجز أخرى من أجله، لم
يتعجَّب من أنَّ جاره قد سبقه، رغم أنَّه لم يره مُطلقًا في طريقه،
ولم يندهش أنَّه عثر على خيمتين لهما، فهو ساحر وله طُرُقه وحلوله
المبتكرة، وكما حافظ على حماره من قبل، هو قادر على أن يفعل أيَّ
شيء، كمشعوذ سُخِّرَتْ له قبيلة من الجان لتلبية أوامره.

في الحال دخلت النسوة إلى الخيمة، يرتبن متاعهن القليل،
زادت دهشتهن عندما وجدن الكثير من المُون؛ سمن وعسل ودقيق

ولحم وأشياء أخرى كثيرة، وقف أحمد مع مقبل بين الخيمتين ليشكره، ولأول مرة في حياته يشعر بأنّ جاره الغامض يمكن أن يفيدَه، لم ينته أحمد من كلمات الشكر حتى خرجت أمّه لتشكره هي الأخرى، لم تكتفِ بالشكر بل سألته:

- كيف حصلتَ على هاتين الخيمتين؟

تبسّم وهو يجيبها:

- أهل الخير دلّوني عليها، عندما طلبتُ منهم خيمة أخرى لم يمانعوا، وقفْتُ حارسًا عليها حتى تحضروا وتستلموها.

- وأهل الخير هم من وقَّروا كلَّ ما فيها؟

- نعم يا أمّ أحمد، وجدتُ في خيمتي نفس ما عندكم، شيء لله يا بدوي مدد.

لم يفهم أحمد ما يتحدثون عنه فسأل أمّه:

- وماذا وجدتِ في الخيمة؟

لم تجبه، وربما لم تسمعه من الضجيج حولهم، أو أنّها تركت الإجابة لمقبل، وانصرفت عائدة لخيمتها وهي تردد:

- مدد يا سيّد، مدد يا بدوي، مدد يا آل البيت.

أعاد أحمد السؤال عليه، فأجابه باقتضاب وهو يهز رأسه كالدرأويش:

- ربك غمرنا بخيره، نقول لا؟! الله حي؛ مدد.

سحبه من يده وراحا يتجولان في المولد، ورأسه مستمر في التأرجح، توقف أحمد عن الكلام، بدأ ينظر حوله محاولاً التعايش مع أجواء المناسبة، كان المتسولون يملأون المكان، في كل خطوة تقريباً يوقفهم رجل أو امرأة أو طفل يطلب منهم حسنة، يستثمرون عاهات مصطنعة تفتنوا في إظهارها، لم ينشغل بهم لسببين؛ أولهما.. أنه لا يملك شيئاً ليحسن لهم به، ثانيهما.. هم لا يستحقون الإحسان، وهو واثق من هذا، ما لفت انتباهه هو منظر الأطفال البائس بسيقانهم الهزيلة وهم يمشون شبه عراة، أعناقهم المدلاة على صدورهم من الضعف، أثار الشفقة في نفسه، صحيح أنه معتاد على رؤية مثل هذا من قبل لكن ليس بمثل هذا العدد، حتى في السنوات الماضية وفي نفس هذه المناسبة لم يكونوا بهذا الكم، كان رفيقه عكسه تماماً، فلم يهتم بأمر هؤلاء مطلقاً، وكيف له أن يهتم وهو يتابع أولئك النساء، اللواتي وقفن أمام بعض الخيام، ينادين راغبي المتعة بالفاظٍ وإيماءاتٍ جنسيةٍ متعارف عليها، لحظات قليلةٍ وتاه أحمد عن جاره، نظر حوله لم يجده، عاد أدراجه نحو خيمته ليمارس مهنته القديمة التي يهواها وهي الطبخ.

في الخيمة عرف إجابة سؤاله، وجد كل ما يحتاجه لطهي وجبة فاخرة، حتى لحم الضأن كان متوفرًا، أشعل نارًا خلف الخيمة، وشرع في عمله، وقفت عائشة تشاهده وهو يحاول إشعال النيران، ويدها تفرك بعض فصوص الثوم لتقشرها كما طلب حبيب قلبها.

جذبت رائحة الطعام بعض النسوة وأطفال الخيام حوله، وقفن يتابعن الطباخ الماهر وهو يعدّه، بعضهن سألته عن طريقة عمل بعض الأطعمة، كان يجيبهنّ ورأسه مطأئنة في الأرض، أو محاولاً التظاهر بالانشغال في عمله، كل هذا لم يشفع له عند الغيورة، ما إن انتهى من الطهو، وحمل القدور داخل الخيمة، حتى قابلته عائشة بوابلٍ من الكلمات اللاذعة، حاولت أمها تكميم فمها، لكنها لم تفلح في هذا، وانطلق من فيها الكلام كبنديقة انطلقت منها رصاصات عشوائية دون أن يضغط أحد على زنادها، وانتهى القصف بكَيْلِ اللعنات عليه.

هدأت بعض الشيء، وأصرت على رفضها مشاركتهم وجبتهم، وبعد إلحاح من الجميع؛ وافقت أن تأكل، بعد أن أمّلت شروطها بأن يتوقّف عن الطهي، أو أن يطهو داخل الخيمة، وعلى الجميع أن يتحملوا الدخان، وافقوا على ذلك، فجلست لتأكل وهي تعطيهم ظهرها .

قبل أن يبدأوا في تناول غداّتهم، وصل إلى مسامعهم صوت مقبل من خارج الخيمة، وصوت تصفيق يستأذن أن يخرج أحمد إليه، قام على مضضٍ وسط سخط كل من في الخيمة على جارهم،

الذي وَفَّرَ لهم تلك الخيمة الأنيقة ومحتوياتها الفاخرة.

سأله عن سرِّ اختفائه فلم يجبه، أخبره بأنَّ هناك شخصاً من عليّة القوم ينتظره في خيمته، تساءل عن سرِّ هذا الرَّجُل، ارتبك قليلاً قبل أن يجيبه، خَمَّنَ بأنَّه ربما شمَّ رائحة طبخه ويريد أن يتذوقه.

تميّزت خيمة مقبل بـكبر حجمها، كما أنّها مقسمة لقسمين جزء كبير منها مخصص كديوان صغير مفروش بحصيرة على أطرافها مراتب قطنية مرفوعة بعض الشيء عن الأرضية، للخيمة نافذة عليها ستارة رقيقة مرسوم عليها بعض الوُزْدِ زاهي الألوان، في صدر الديوان وعلى أكثر المراتب إرتفاعاً جلس رجُل طويل، توحى ملابسه بأنَّه تاجرٌ غنيّ، أو رجُلٌ دولةٍ، ذو شأنٍ عظيم، لثَمَّ وجهه بشالٍ كشميريّ أزرق متناسق مع ألوان ملابسه، التي اتَّسمت بالرّقة والفخامة.

نظر المثلث لأحمد، وسأله دون أن ينزع اللثام عن وجهه:

- أنتَ أحمد سالم المرجاوي؟

- نعم يا سيدي.

- هل تجيد الطَّهي؟

تدخّل مقبل في الحديث:

- إنّ رائحة طعامه تجذب أهل الحي يا ...

نظرة واحدة من الملمثم جعلت مقبل يبتلع لسانه ويقف صامتًا، لم يُعد الملمثم السؤال، فأشار بيده لأحمد أن أجب، استجمع شجاعته وهو يتلثم في الردّ:

- أعتقد ذلك يا سيدي، كل من تذوق طعامي أبدى استحسانه.

- هل تجيد طهو الأكلات الإفريقية؟

- كل أنواع الطعام يا سيدي، تعلمت الأكلات الإفريقية أثناء خدمتي لمسيو ألبرت...

قاطع الملمثم في حدّة:

- أعلم أنّك كنت تعمل عند هذا الفرنسي الكافر، أنت مطلوب للعمل عند مسلم هذه المرّة، ستتقاضى أضعاف ما كان يدفعه لك هذا الكهل المشرك.

- لكن يا سيدي...

أشار الملمثم له بيده أن يتوقف، فتوقف بسرعة، جذب أحمد برفق وأجلسه بجواره، مدّ يده لطبق الفاكهة الموجود أمامه، التقط تفاحة كبيرة وعرضها على أحمد، وهو يكمل حديثه في هدوء وثقّة:

- أنتَ مكلف بهذا العمل من قِبَل جناب الباشا.

- محمد علي!

- أَّجَل، أفندينا محمد علي باشا.

- هل سأعمل عند مولانا الباشا؟

- لا؛ بل ستعمل عند عدو للباشا.

ظهرت الحيرة على وجه أحمد، اقترب المثلث منه، وهمس في أذنه، بعد أن تعالت بعض الصيحات في الخارج:

- سنرسلك لتعمل عند محمد بك الألفي، لا تهتم بذلك، كل شيء مرتب، هل أنت مستعد لزواجك من عائشة؟

نظر أحمد نحو مقبل، الذي أشار بيده أنه لم يخبره بشيء، أكمل المثلث حديثه:

- لا تقلق على عائشة.

- لا أفهم.

- عائشة وكل من كان في الخيمة معك منذ قليل في الحفظ

والصون.

انتفض أحمد من جلسته، وقفز خارجاً من الخيمة، كادت أن تعرقله حبالها، دخل خيمته فوجدها خالية إلا من المتاع والطعام، الذي أعده من قبل مرصوفاً على الأرض، فلم ينقص منه الكثير، طاش عقله، وعاد مهرولاً لخيمة مقبل، حاول أن يمك بتلايب الملمم، فدفعه بعيداً عنه، سقط على الأرض، وقف الغامض في ثباتٍ أمامه، رماه بنظرة حادة وهو يلقي بأوامره:

- ستذهب وترافق الألفي وستنقذ ما يطلب منك، لا تقلق على أهلك سيعيشون حياة لم يحلموا بها، عليك أن تكون عاقلاً وتفهم ماذا يجب أن تفعل؟

أوماً أحمد برأسه في إذعانٍ بالموافقة، رفع الرجل لثامه ليظهر له وجهه، تمنع أحمد في ملامحه وهو يصيح:

- أنت! إنه أنت!

تبسم الرجل وهو يساعد أحمد على النهوض:

- نعم، إنه أنا، التقيت بك من قبل في بولاق، وساعدتكَ على الخروج من بوابة السعادة، كنت أراقبك طوال رحلتك، اسمي «عز الدين»؛ استدار الصحبة⁷ «عز الدين»، عليك أن تستعد الآن للرحيل، لا تأكل من الذي

7- المشرف على المطبخ السلطاني والطعام وخدمة السماط. عادةً يكون أمير عشرة.

طهوته، وإلا ستذهب في نوم عميق، هيا اذهب وأحضر
ملابسك، التي بالخيمة سننطلق في الحال.

جرجر أحمد قدميه خارجًا من الخيمة لا يعي ما
حدث، هل هذا حقيقي؟ أم أنه كابوس مُخيف؟ اسودت
الدنيا في وجهه، عليه أن ينصاع لأوامر هذا الأمير، وإلا
فَقَدَ أعلى ما يملك، التقط بُلغته من أحد أركان خيمته،
دس طرفي قدميه فيها وعاد مدعنا صاغرا لخيمة مقبل، يحمل
هموم الدنيا على كتفيه.

(8)

بريق خاص

جلس محمد بك الألفي يدخن نرجيلته، تصاعدت سُحب الدخان من فمه وهو يهز رأسه موافقًا، لا يعلم أحدٍ لِمَ يهز رأسه، ولا علامٌ يوافق هكذا، منذ فترة طويلة وهو قليل الكلام، كثير الصمت، دائم التأمل، داخل هذا الرأس، الذي غزاه الشيب أفكارًا لا يستهان بها.

أرسل لإنجلترا الرُّسل يطلب منهم القدوم كما وعدوه، عليهم أن يبرّوا بوعدهم على الفور؛ فالذئب قد استولى على السلطنة، وكلما طالت المدّة، تمكّن من تثبيت حُكمه، وفرض سطوته، أليس هو من سمّم مساعده الأول ونائبه «بشتك باشا»؟ إنّه هو بكلّ تأكيد، من الذي خدع المماليك وجعلهم يعصون هذا الصامت؟ هو دون شك، الويل لك يا محمد علي، سيقتلته في يوم من الأيام، سيقطع رأسه ويفرغها من كلّ القاذورات، التي في داخلها، ويحشوها تبنًا ويطوف بها جنوده شوارع، وحارات، وأزقة، وعطفات القاهرة قبل أن يزيّن بها بوابة قصره.

عاد مرّة أخرى يقلب صفحات كتاب عن النجوم والفلك، كان يقرأ فيه قبل قليل، لكنّ انشغال باله منعه من أن يستكمل القراءة، طوى الكتاب، وعاد مرة أخرى لنرجيلته، دقائق ودخل عليه حاجبه يستأذنه؛ يخبره بأن ناجي الشرباصي ينتظر الإذن بالدخول، أشار له بالسماح، لحظات ومثّل أمامه وانحنى في احترامٍ شديد، وقبل طرف ثوبه، ووقف في خشوعٍ ناظرًا للأرض، نظر الألفي وتبسّم وسأله في ألفة:

- هل كلّ شيء جاهز؟

لم يرفع التاجر عينيه وهو يجيب:

- نعم يا سيدي.

- هل تعتقد بأنّ الكمّيات كافية؟

- بالطبع يا جناب البك، لقد وُضعتُ بالمخازن غلالاً، وسمناً،

وعسلٌ، وسكّرٌ يكفون ما يقرب العام ويزيد.

إبتسم في رضا وهو يردد:

- عظيم، عظيم.

اطمئنّ ناجي عندما لمح بطرف عينه ابتسامة البك، عاد الألفي

لنرجيلته المطعمة بالجواهر، سحب منها نفساً عميقاً، وتعارك

الدخان والماء داخل زجاجها البلوريّ، نفث دخانها في الهواء، بعد أن تأكد من أنّ صدره قد فرغ تمامًا من الدخان، عاد للحديث مرّة أخرى:

- هل أحضرت الفواتير؟

ركع على ركبته اليمنى، فانحنت ساقه اليسرى خلفه، وهو يمدّ يده ببعض الأوراق نحو البك، وهو يقول بصوت خافت:

- خيرك سابق يا جناب البك.

التقط الأوراق من يديه ووقع عليها دون أن يقرأ ما فيها، أعادها إليه، وأشار له بالانصراف، خرج البائع فرحًا بصفقتة، هذا هو الأمير المملوكي الوحيد، الذي يدفع ثمن البضاعة، التي يترك للتاجر تميمها، لا ينظر في الفواتير ويعتبرها قِلّة قيمة أن ينحط لهذا المستوى.

حقًا إنّه تاجر محظوظ؛ لأنّه حظي بثقة الألفي بك، يحسده زملاؤه التجار ومنافسوه، سعوا كثيرًا لإفساد صفقاته، ودائمًا ما كان الفشل حليفهم، ليس لمهارته أو لحسن بضاعته، أو لتواضع أسعاره، فكلّ شيء بثمن، الكثير من الإكراميات دفعها مسبقًا لرجال البك، المسؤولين عن المونّ، لا يهم فكلّ شيء قد أضيف على ثمن البضائع التي ورّدها، والأرباح وفيرة دائمًا، وخصوصًا هذا الموسم، فطلبات الأمير هذا العام أضعاف مضاعفة عمّا يطلبه كلّ مرة، رجاله في

ازدياد، وقد تعدوا الألف بقليل، يوفر لهم قُوَّتَهُم وملبسهم ويزوِّج الكثير منهم، لولاية مصر بريق خاص، ولها أيضًا ثمن، ولي المكاسب المضاعفة، هكذا حدّث الشرباصي نفسه قبل مغادرة ديوان الألفي.

وقف الألفي على قدميه، واضعًا يده خلف ظَهْرِهِ، قطع الديوان ذهابًا وإيابًا، الأمور تسير نسبيًا كما يرجو، المؤمن توقّرت والرجال ازداد عددهم، إنّه الآن أقوى من محمد علي نفسه، فذاك الألباني لا يزيد عنه شيئًا إلا الشرعية، وقريبًا سينزعها عنه ويعرّبه، هو الآن الأكثر عددًا وعدّة، عليه فقط أن يطمئن على جاهزية رجاله، وبعدها ستكون نهاية هذا المتطفل قد بدأت.

إذا حقق رجاله انتصارًا اليوم في معركتهم في جزيرة الهواء؛ فسيطمئن قلبه، لقد أرسل خير جنوده وعربانه المخلصين، هو لا تقلقه النتيجة، فالنصر شبه محسوم، بالرغم من أنه لا يأمن مكر ذلك الثعلب.

في انتظار أيّ خبر عن معركته، التي دبّرها، كان قد سيطر القلق على البك، هي معركة ليست ذات شأن، وتكمن أهميتها بأنّها أول اختبار عملي لقواته ضد قوات نائب السلطان الجديد، في حال انتصروا؛ سيكون له الحق في مخاطبة شيوخ الأزهر، كما أنّها ستكون رسالة واضحة لحليفته إنجلترا بأنّ ثقتهم فيه في محلها.

في قلب هذه الدوامة الفكرية سمع وقّع سنايك خيل تقترب
مسرعة، لحظات ودوّت الطلقات النارية في المكان بشكل عشوائي،
خرج من ديوانه يستفسر عن الأمر؛ فأجابه أحد خدمه بأنّ واحدًا
من عربان الشرقية قد عاد من المعركة، ويبدو أنّه يطلق النيران
احتفالاً بخبر سارّ.

عاد لديوانه، وبسمة مستترّة تداعب شفّتيه في خجلٍ، جلس
فيه متظاهرًا بعدم الاكتراث، ثوانٍ قليلة وانحنى سلمان الطحاوي
بجسمه الطويل النحيف، وأنفه الدقيق المقوس والذي يشبه منقار
الصقر، ولحيته الطويلة الكثة في احترام واضح أمام أميره، نظر إليه
وقطّب بين حاجبيه وسأله:

- هل أنت من كان يطلق النار؟

- نعم يا مولاي الأمير.

- ولم؟

- أبشرك بالنصر على جنود الألباني.

- أحقًا ما تقول؟

- نعم.

إبتسم الألفي في ثقة وهو يهزّ رأسه في خيلاء؛ وأشار للطحاوي
أن يجلس إلى يمينه، جلس بجواره واستكمل حديثه:

- لقد قتلنا «كوريوسف» يا مولاي.

اعتدل في جلسته، ونظر باهتمامٍ لمحدثه، والدهشة تملأ محياه:

- أصدقني القول يا رجل .

- أقسم لك أنّ هذا ما حدث، لقد رأيتَه بعينيّ صريعًا، ترجّلت
من على فرسي بعد أن فرّ جيشه هاربًا، وتأكدت أنّه فارق الحياة.

- لماذا لم تحضر رأسه؟

- سيحضرونها بكلّ تأكيد.

كاد الألفي أن يقفز من الفرح، لم ينتصر رجاله فقط، بل تمكنوا
من الفتك بواحد من كبار قادة المتطفل، ذي اللحية الحمراء، صفّق
بيده أمرًا رجاله بأن يحضروا الشرابات، والحلوى، والنُّقل للطحاوي.

طاحت يد الطحاوي بين الأطباق، وهو يلتهم ما قدّم له
بشراهة، نظر نحو أميره، وتدكّر عندما كان ذاك الرجل، الذي على
يساره كاشف الشرقية، قبض عليه، وكبّله بالحديد أسيرًا هو وأولاد
عمومته، وقتئذ اعتبرهم الأمير خارجين عن القانون، صلبهم على
مفترق الطرقات، كواهم بالنار، رگع على ركبتيه أمامه، يتوسله أن

يعفو عنه وعن أولاد عمومته، رق قلبه على البقية، مات من مات
من التعذيب، وأمّا من بقي منهم فقد أذعن له دون نقاش، الآن هم
من رجاله، الذين يساندونه وهو لا يبخل عليهم بالعطاء.

أثبتوا أكثر من مرّة حبّهم وإخلاصهم له، أخفوه عن أعين
الفرنسيين أكثر من مرّة، حاربوا معه ضدهم، والآن يجلس إلى يمينه
يتلقى منه كلّ علامات وإشارات الودّ والحبور، بعد أن هدده بالقتل
في يوم من الأيام.

(9)

بطل من ألف ليلة وليلة

تزيّن القصر الصغير، وما حوله ابتهاجًا بالنصر، عُلقَت الأعلام على أركانه، وملأت القناديل الطريق، حتى بابَه الرئيسي، فُرشت الأرض بسجاد فاخرٍ، وتراصت على جانبي الطريق فرق الموسيقى الشعبية، وفرقة موسيقى عسكرية على غرار الفرق العسكرية الإنجليزية، أعجبت الموسيقى العسكرية - بطبولها، وآلات النفخ - الألفي وهو في زيارته لإنجلترا، أعجبه أيضا نظامهم العسكري، الذي لفت انتباهه كثيرًا، مشهد الجنود وتحركهم في صفوف منتظمة أثار دهشته، تدريباتهم الدؤوبة، جديتهم، إصرارهم، جعله يحلم بجيش مثل هذا، عقد العزم على أن يطبّق هذا النظام على جيشه الصغير، نجح في أشياء لكنه أخفق في الكثير.

تحول القصر وحديقته وما حولها إلى أشبه ما يكون بـغرس، أو احتفال كبير لوليّ من أولياء الله الصالحين، فلم يكن الغرض من

كلّ هذه الزينة الاحتفال بانتصار أتباع الألفي، وقتلهم «كور يوسف» فقط، بل كان هناك زائر مهم سيصل قريبًا للمرة الثانية على التوالي، عند زيارته السابقة لم يهتم صاحب القصر كثيرًا بتزيينه كما هو الآن، لكن بعد هزيمته لجند الوالي، فعليه أن يستغل هذا الحدث، وإبرازه لحلفاء اليوم، ومشاركينه الحكم غدًا.

جلس الألفي في صدر ديوانه بملابسه المزركشة الزاهية، تعبّق المكان برائحة البخور الطيبة، تدلى سيفه الطويل، بمقبضه الذهبي المزين بالجواهر إلى جانبه، وهو في انتظار ضيفه؛ القنصل الإنجليزي في مصر، نبّهت دقائق الطبول صاحب الديوان بوصول ضيفه؛ فوقف، واقترب من باب الديوان للترحيب به، هكذا كانوا يحتفون به في بلادهم، وعليه أن يردّ لهم كرم ضيافتهم.

لحظات وامتلأ الديوان برجال من مختلف الأصناف، وعلى رأسهم القنصل، بربطة عنقه الزرقاء، التي انشغل رجال الألفي بالتفكير في فائدتها، جلس القنصل إلى يمين الأمير المصري بوجه بشوش، سعيد بحسن استقبال الأمير له، على مقربة منهما جلس مترجمٌ، حلقة وصل بينهما، رغم سفر الألفي إلى إنجلترا ومعيشته هناك أكثر من عام، إلا أنّه لم يتعلم إلا القليل من كلمات الترحيب، التي سرعان ما انتهت، سأل القنصل الإنجليزي:

- وماذا تنوي أن تفعل بعد انتصارك على جنود الباشا؟
- سنتكلم في هذه الأمور بعد العشاء، سفركم طويل ولا بد أنكم جائعون الآن.
- أشكرك سيدي الأمير، لكنك تعرف جيدًا أنني لا أستطيع تناول طعامكم؛ هذه أوامر الأطباء.

يعرف الأمير تمام المعرفة أنّ القنصل لا يقول الحقيقة، كل ما هنالك أنه لا يستسيغ الطعام المصري، وأنه رغم طول مدة إقامته في مصر لم يعتد على عاداتهم الغذائية، تذكّر الألفي أيامه في قصور لندن؛ كيف وفروا له كل ما يتمناه، وكأنه يعيش في قصره في القاهرة، ذلك القصر، الذي لم يستمتع به أكثر من أسبوعين وبضعة أيام، ليحتله «بونابرت» الكافر، ويجعله مقرًا لحكمه، لا عائد من البكاء على اللبن المسكوب، فقريبًا وبمساعدة هذا الرجل ومملكه وجيشه سيعود للقاهرة، ويحكمها من القلعة، ويسترد قصره المنهوب، نظر نحو أحد رجاله وتساءل في حدة:

- طلبت من قبل طباحًا يجيد الطبخ الإفرنجي، أين هو؟
- بحثنا عنه، وأخيرًا دلنا عليه مقبل تاجر الغنم يا مولاي الأمير.

- ومتى سيصل؟

- إنّه في الطريق، يومًا أو اثنين بالأكثر ويكون هنا.

نظر الأمير للقنصل وهز رأسه وهو يشير للرجل، الذي كان يكلمه والابتسامة تعلقو شفثيه، لم يدرك الألفي بأن المترجم لم يترجم هذا الحديث الجانبي، لم يمنع هذا القنصل من مشاركته الابتسام، هز رأسه دليلاً على الرضا، وهو يشير صوب تابع الأمير .

عاد المترجم مرة أخرى لمزاولة عمله، بعد أن أعاد القنصل سؤاله الأخير، كانت إجابة الألفي حادة وقوية:

- سنزحف نحو القاهرة بكل تأكيد، وسيكون انتصارنا القريب سبباً قوياً لجمع أمراء مصر حولنا.

- لو اجتمعت كلمتكم أنت ورفاقك الأمراء؛ ستكونون القوة الأكبر في المحروسة، كما أن إنجلترا لن تترككم، سنرسل تجريدة تقف إلى جانبكم.

- هذا لا يكفي.

- ماذا تريدون أكثر من ذلك؟!

- السلطان؛ لو لم نكسب السلطان والباب العالي في صفنا؛ فكل ما نقوم به سيذهب هباءً.

تعالت ضحكة القنصل الإنجليزي وهو يربت على كتف الأمير سعيداً بذكائه:

- اطمئن، لم نغفل عن هذا، كل ما في الأمر أنّ خورشيد باشا ما زال سجين القلعة حتى الآن، اطمئن فنحن لا نترك شيئاً للظروف.

هزّ الألفي رأسه، وأمر بمدّ السماط للضيوف، لحظات وانتقل الجميع لصالة كبيرة بها موائد متوسطة الارتفاع، رصت عليها كلّ أنواع الطعام، في صدر الصالة جلس الأمير، والقنصل، ومترجمه، وأمّامهم طبق كبير من الفاكهة، تناول الألفي بعضاً منها، وعرضها على القنصل، الذي قبلها بودّ، والابتسامة لم تفارق وجهيهما.

بعد أن تناولوا بعض حبات الفاكهة، وقفت الجوّاري الحسان بالأباريق، ليغسلوا أيديهم، هذا هو التقليد الوحيد الذي يؤثر كثيراً في القنصل الإنجليزي، شَعَر وقتها وكأنّه بطل من أبطال ألف ليلة وليلة، غسل يديه مع أنّها لم تتسخ من طعامه، تبع الألفي، وعينه معلقة بتلك الجارية الجورجية، التي كانت تصبّ له الماء منذ قليل.

عادا إلى الديوان حيث أطباق الحلوى في انتظارهما، اعتذر القنصل عن الحلويات، أخرج غليونه وحشاه بالتبغ وأشعله، انشغل الألفي بتدخين نرجيلته، نفث القنصل الدخان باتجاه اليمين بعيداً عن الأمير الجالس إلى يساره، نظر إليه وسأله بخبث بريطاني:

- دائماً تصف الفرنسيين بالكفرة، وماذا عنا نحن الإنجليزي؟

تردد المُترجم الذي جلس إلى يسار الأمير، أشار القنصل إليه بأن يترجم ما قاله، لم ينظر الألفي للمترجم، فقط نظر إلى السقف وهو ينفث دخان نرجيلته بعد تردّد لم يطل، تُرجم السؤال، نظر الأمير نحو ضيفه وابتسامته تضيء وجهه وأجاب:

- أنا أراكم أهل عهدٍ، نصارى، ملككم هو رئيس كنيسةكم، وهو حامي الصليب، على نقيض أولئك الفرنسيين الكفار، الذين لا يعتقدون في الدين، هم يؤمنون بشعارات جوفاء كالحرية، والإخاء، والعدل، لكن كيف سيتحقق كل ذلك إذا ابتعدوا عن الدين؟!

أعجبت الإجابة القنصل، وانفتحت شهيته ليسأل مرة أخرى:

- وماذا عن مسيحيي مصر؟

- ماذا عنهم؟

- هل هم مثلنا؟

- لا، هم مصريون، يمارسون طقوسهم بحرية.

- رغم كل هذه التجاوزات التي تحدث في حقهم.

- عندما تحدث تجاوزات فهي تكون في حق الجميع دون

استثناء المسلمين والمسيحيين واليهود، أعلم أنّ المصريين عانوا

الكثير منا نحن المماليك، ومن الأتراك، ولقد حان الوقت لأن يأمنوا

ويعيشوا تلك الشعارات، التي ينادي بها الكفار، تحت مظلة حكمنا الإسلامي.

- وهل تتعهد بحرية المسيحيين؟

- لا.

أفزعّت الإجابة القنصل، جحظت عيناه حتى كادت أن تزيح نظارته من على أنفه، واصل الألفي حديثه في تودة:

- بل أنعهد بحرية كلّ المصريين.

خرجت الكلمات دافئة من صدر الأمير مغلفة بالصدق، تشتم فيها رائحة إخلاص النية، رغم تلك الابتسامات الخبيثة التي ظهرت فجأة على وجوه أتباع البك، وقف القنصل مستأذناً في الانصراف، اعتدل الألفي في جلسته وصافحه، متمنياً له سفرًا مريحًا، واعدًا إياه بأنّ الزيارة القادمة سيجد على سماطه كلّ ما يشتهييه من الطعام الأوروبي الفاخر.

(10)

الْحَمَّام

أمام الواجهة البيضاء المزركشة بخطوط حمراء متعرجة، وقف أحمد بصحبة عز الدين، قبض عز على رسغ أحمد بقوة، نظر إليه والقسوة تلمع في عينيه، أشار له بسبابته محذراً، وبإبهام يديه الأخرى سحبها على عنقه، هز رأسه في إذعانٍ، وانطلق داخلاً من الباب العمومي.

مرّ من خلال مممرين ضيقين، الإضاءة الخافتة جعلته لا يرى جيداً خصوصاً بعد الضوء الباهر، الذي غادره منذ ثوان خارج الحمام، وقف لبرهة لتعتاد عيناه الضوء الخافت في الداخل.

لحظات واعتادت عيناه الرؤية، انطلق داخلاً صالة واسعة مغطاة بالحصير، وفي وسطها نافورة ماء بارد، جلس على أول مصطبة قابلته، وضع رأسه بين ركبتيه وحاول أن يستوعب ما جرى،

لكن دون جدوى وذهبت محاولاته كلها هباء، مجرد أسئلة تدور في عقله، وتطفو في فضاء رأسه، لا يعرف أيّ مستقبل ينتظره هو وعائلته، أسئلة كثيرة جالت في خاطره ردّدها بصوت هامس دون أن يصل لأيّ إجابات، فجأة قفز سؤال جعله يقف على قدميه، أين أبوه من كلّ هذا؟ استدار ليخرج من حيث أتى، ركلتان قويتان استقرتا أعلى بطنه كانتا كافيتان لمنعه من التفكير مرة أخرى بمحاولاته الساذجة للهروب من برائن ذاك الضبع، الذي ينتظره بالخارج، أعادته ملفياً على الأرض، بالقرب من تلك المصطبة، التي كان يجلس عليها، والألم يعتصر معدته، رفع رأسه صوب القبة العالية، التي تعلو النافورة، شَعَرَ بأنّ حجم القبة الضخم صغيرٌ جداً مقارنة بجزعه وخوفه.

خلع كلّ ملابسه، وتسلمّ منشفةً كبيرة، جرّ قدميه ليدخل غرفة دافئة، الأرضية الرخامية البيضاء تشع حرارة لطيفة، جلس على المصطبة الوحيدة، وصوت رقرقة المياه في البهو الرئيس للحمام، يتسلل لأذنه محاولاً أن يفهمه إلاّ فائدة من أيّ محاولة للهرب أو للفهم، ما بيده حيلة، وعليه أن يتبع تعليمات ذاك العز، الذي لم ير منه إلاّ كلّ ذلٍّ وضياع.

تأمل البهو الرئيس للحمام، وكأنّه يدخله لأول مرّة في حياته، وهو الذي اعتاد دخول مثل هذه الحمامات مرتين على الأقلّ أسبوعياً، الأرضية الرخامية البيضاء، والتي تتقاطع في خطوط منتظمة مع

بلاطات رخامية سوداء، البخار ملأ المكان حاجباً الرؤية، مغطس الماء الساخن بفروعه الأربعة، كصليب مائي، القباب الأربعة العالية فوق كل فرع، والماء الحار ينسكب منها دون توقّف، المصاطب التي تحيط بكل واحد منها، الرجال ممددون فوقها، أو جالسون عليها، وأيدي العاملين بالحمام الدوؤبة تفرك وتدلّك أجسامهم، والبقية جالسون في مغاطس المياه يستمتعون بحرارتها.

العرق الغزير المنساب من جسده قلل كثيراً من إحساسه بحرارة المكان، وسط هذه الغيمة البيضاء، اصطدم به أحد العاملين بالحمام؛ كاد أن يسقط في الماء، أمسكه العامل بقوة، لحظات وكان ممدداً على أحد المصاطب، مستسلماً ليد البلان وهو يكبس جلده برفق، صوت طقطقة مفاصله أشعرته بلدّة غريبة، عاد بذاكرته لطفولته؛ كل يوم جمعة يصطحبه أبوه إلى حمام شبيه بهذا، كان دائم الهرب من عملية الطقطقة؛ مثّلت له عبئاً كبيراً، والكثير من الألم، لكنه الآن لا يشعر بأي ألم، وكيف له أن يشعر بهذا، وفي قلبه أضعاف مضاعفه مما لو جلدوه ألف جلدة؟!!

تسلّمه عامل آخر، فرك جسده بليفة خشنة، تفتّلت أتربة تراكمت على جسده الأسمر أثناء رحلته المشؤومة إلى طانتدا، وعودته منها، هل هناك من يستطع أن يفتل حزنه لخياوط رفيعة، ويغسله ويخلصه منها، ويحولها إلى فرح مرّة أخرى؟!!

انتهى من حمامه وعاد للغرفة الدافئة مرة أخرى، جلس يستريح
وأنى له الراحة، أو من يدلّه عليها ويعطيه نصف عمره بالمقابل،
القلق ينهش في نفسه كوحش جائع، من أسابيع وعشر أخيرًا على
فريسة سهلة، تشبع نهمه الذي لا حدود له.

خرج من الحمام، ولم يجد «عزًّا» أو جنوده في انتظاره، نظر
حوله تأكد أن لا أحد هناك، أطلق ساقيه منطلقًا بعيدًا عن الحمام،
ما إن وصل لنهاية الشارع حتى وجده راكبًا حصانه العالي، وحوله
جنوده واقفين في انتظاره، وبسمة عابثة على شفاههم، توقف ونظر
خلفه، تمنى لو أنه جرى إلى الناحية الأخرى من الشارع، ترجّل عز،
ربت على كتفه وقال له ساخرًا:

- لو جريت إلى الجهة الأخرى كنت ستجدني هناك أيضًا،
أخبرتك من قبل أنك لن تتمكن من الهرب، وإن استطعت، فما عليك
إلا أن تنسى أمانتك، التي استودعتها عندي.

لم يستودعه أيّ أمانة، بل خطفهم، ويدّعي أنهم في الحفظ
والصون، وكما لا يستطيع الهرب لا يمكنه تكذيبه، أطرق رأسه ذلاً
وهو يحدثه:

- لم أكن أحاول الهرب، كنتُ أبحث عنك.

ربت عز مرة ثانية على كتفه، وسلّمه جوادًا أسودَّ ضخمًا، مسك
لجامه في حيرة، وهو يتلقى التعليمات الأخيرة:

- ستنتقل نحو الفيوم، على الطريق، ستجد جارك، الذي أوقعك في أيدينا من قبل، سيصطحبك لقصر الألفي، هل سمعت عنه من قبل؟

حدّث نفسه، وصدى صوته يجلجل داخله: (أوقعني! ما أنا إلا جرد صغير في قبضة قط صحراوي موغل في التوحش، يلهو بي قبل أن يلتهمني، الويل لك يا «مقبل» عندما ألقاك، لن أبقى منك قطعة لحم صالحة للدفن.) ماجت نفسه بالغضب كبركان أوشك على الانفجار، جِم الكراهية تسري في عروقه، نيران الانتقام أخذت من قلبه موقدًا، دخان الغضب احتل صدره كمرجل أحكم غلقه، وثرِك على النار لأسابيع، لكن هناك من يقف بجواره وينتظر إجابة على سؤاله، رفع رأسه قليلاً محاولاً رؤية وجه عز قبل أن يجيب:

- بالتأكيد يا سيدي، ومَن في بر مصر كلها لم يسمع به!

- ماذا تعرف عنه؟

- الكثير.. طارد الفرنسيين في كلِّ شبر من أرض المحروسة، قتل منهم عددًا لا يستهان به، يقولون: إنّه يريد حكم مصر...

قاطعته عزّ في حدّة:

- وهل تعتقد أنّ هذا يحق له؟

استشعر أحمد الغضب في سؤاله، لم يعطه فرصة ليجيب،
وانطلق في حديثه:

- هل تعلم أنّه يستعين بالإنجليز الكفار ليعتلي عرش مصر؟ ماذا
يستحق من ينتظر العون من أهل الكفر والضلال؟

- الموت.

- وهذا دورك يا بطل.

- أنا؟!!

- نعم أنت، هذا تكليف من الباشا، وسيكافئك عليه بعد أن
تعود.

- ولكنني لا أستطيع أن أستعمل السلاح، ولا أجد ركوب الخيل

ضحك عز حتى كاد أن يقع على قفاه، تمالك نفسه، وعاد لحديثه
الجاد:

- لا تقلق سيدربك أحد جنودي على امتطاء الخيل.

- وماذا عن السلاح؟

عاد عز للضحك بشكل هستيري، تمالك نفسه وعاد لحديثه:

- لا سلاح لمصري، هل جننت؟!!

- كيف سأقتله إذا؟

- عندما تقابل مقبل؛ سيخبرك بكل شيء، سأصطحبك الآن لساحة التدريب، ستذهب للفيوم كما أخبرتك من قبل، ستجده في انتظارك على الطريق، لا تحتاج لأن أذكرك، لا فائدة من الهرب حتى لو تمكنت، فمصيرك القتل بالخازوق عند تل العقارب، وأمانتك ستباع في سوق النخاسة.

كانت أوامر عز صارمة، وتهديداته واضحة، كما أن محاولات أحمد الفاشلة في الهرب تدفعه لأن ينصاع لكل أوامره دون تفكير، هو لم يمسك سلاحاً من قبل، فكيف له أن يقتل رجلاً، احتار في قتله الفرنسيون، وخدع الأتراك، وتغلب عليهم أكثر من مرة؟! ماذا سيحدث لو لم يتمكن من قتله؟ هل سيجد له عز والباشا العُذر؟ ولماذا يريد الباشا قتله؟ لم لا يتفق معه ويرتاح ويريحه؟ ترى ماذا سيحدث له لو انكشف أمره للألفي؟

أسئلة لا إجابات لها، في كل الحالات ينتظره الموت، بطريقة أو بأخرى، لو لم يحالفه الحظ، انطلق في طريقه نحو المجهول، والموت يسيطر على كل تفكيره.

(11)

طرف الثوب

فى ليلة مقمرة حجب السحاب ضياءها، عبروا ممراً عميقاً
مكسواً بالعشب المخملي، تعانقت من فوقه أغصان أشجار العنب،
حاجبة بقايا ضوء القمر الفضي، المتسلل من بين نتف السحاب،
غافلت السحب للوصول لوجوهٍ أنهكها طول السفر، وصلوا تحت
جُح الليل، يقودهم أحد الأغوات الغلاظ، عند ساتر الحرير، رفع
الأغا الستار، وأشار لهم بالدخول.

تقدمت لالا زار نحو الضوء المنبعث من داخل الحرمك، وقفت
مشدوهة تنظر إلى الثريات المتدلّية من السقف المزين بخطوط
متداخلة متشابكة في وحدات مكررة، دفعها الأغا برفق لتفسح
الطريق لرفيقاتها، توقفت بعد خطوة أخرى، وهي تتأمل البُسط
الحريرية بألوانها البهيجة، والمرصوة بنظام بديع على أرضية
الغرفة، دفعها مرة أخرى، فتقدمت لخطواتٍ، وتعلقت عيناها

بالستائر بلونها الأخضر بدرجاته المختلفة، والتي غطت النوافذ المرتفعة، تمت لو أنّها امتلكت نصف واحدة من تلك الستائر الكثيرة؛ لتمكّنت من حياكة فستان رائع لابنتها عائشة، دفعها الآغا للمرة الأخيرة، كادت على إثرها أن تسقط على الأرض في هذه المرّة، لحظات وكانت فاطمة وأمّها تنظران في دهشة إلى ما أثار دهشة رفيقتهما من قبل.

توقفت عائشة بالباب رافضة الدخول، وضع الآغا يديه على ظهرها ليدفعها، قبل أن يتمكن من ذلك؛ كانت الشتائم تنهال عليه كرمال عاصفة، هبت فجأة في صحراء لا حدود لها، كيف تجرّ أن يضع يديه عليها؟! صراخها أفاق أمّها، وأختها، وبنات خالتها من تأملاتهن لألوان الحيطان، لم ينبّه صوتها العالي أقاربها فقط، لكنه استدعى بعض الحراس من داخل الحرمك على وجه السرعة، أحاطوا بهم وقد أشهروا سيوفهم، ووضعوها على أعناقهن، ليصمتن جميعاً وقد خلع الهلع قلوبهن.

في صدر القاعة، وفي أكبر المجالس المنتشرة، وعلى أعلى مرتبة، جلست «جلفدان هانم»، وقف الجميع أمامها في صمت تامّ، نظرت نحوهن بامتعاضٍ، وأقفلت أنفها، وأشارت لهن بالانصراف. دفعهنّ الأغوات خارج القاعة في اتجاه باب ضيقٍ إلى يسار القاعة، ممر ضيق خافت الضوء مشين يتقدمهنّ أحد الأغوات، قادهنّ باتجاه درجات قليلة، نزلنها ليجدن دهليزاً لا يزيد اتساعه

عن نصف المتر، على جانبي الدهليز غرف أبوابها خشبية سميقة، فتح الآغا غرفة لها باب منخفض، دخلن دون أن ينبسن ببنت شفه، أغلق الآغا الباب ورحل تاركًا إياهن في غرفة لا يتعدى طولها مترين، ويقل عرضها عن ذلك قليلاً.

على أرض الغرفة الخالية تمامًا من الأثاث تجمعن بجوار بعضهن، تسلل ضوء القمر عبر قضبان شباكها المرتفع الضيق، انعكست أشعته الفضية على أجسادهن المتعبة، فحوّلهن إلى تماثيل من شمع لا روح فيها، اقتربت فاطمة من عائشة وهمست لها متسائلة:

- لماذا أمسكت العجوز أنفها عندما اقتربنا منها؟

نظرت عائشة إليها بنظرة حادة، كادت أن تخلع قلبها من صدرها، قررت فاطمة الصمت، لكن بعد لحظات اقتربت منها أكثر، وهمست لها:

- شمّيني، هل رائحتي كريهة؟

دفعتها عائشة بقوة بعيدًا عنها وهبت واقفة في وسط الغرفة وبدأت في الصياح:

- عن أيّ رائحة تتحدثين أيتها البلهاء؟ ألم تشتمني رائحة الذل عندما عرضونا في سوق النخاسة طوال النهار؟ ألم تصل لأنفك الغبي هذا رائحة المهانة عندما عاملونا كسبايا ونحن الحرائر؟ من

فيكن شعرت بالغثيان والرجال يقبلون فينا كبضاعة رخيصة؟ أنا لن أقبل بهذا الذل أبداً.

اندفعت عائشة نحو الباب، ودقت عليه بعنف، وهي تصيح على الحارس:

- أين اختفيت أيها الأغا الفاقد لرجولتك؟ افتح لنا لنخرج، نريد أن نعود لديارنا، افتح أيها الخصي.

لحظات وكان صوت السياط في الخارج يشق سكون الدهاليز المظلم، وصوت الحارس الآتي من أعماق القهر يردد مهدداً:

- نَمْن وإلا لن ترينَ النهارَ أحياءً، السيدة تعاملكن على أنكِ ضيوفها حتى الآن، حذاري من أن ينقص صبرها قيد أنملة.

رغم أنّ صوت الحارس رفيع خالٍ من أي صفات الرجولة؛ لكنه كان ممزوجاً بغضب السياط، وهذا كافٍ بأن يهرب كلُّ أذن وصل إليها، شدت لالا زار ابنتها وأجلستها بجانبها، وهي تحاول أن تُهدئ من غضبها، الذي انقلب إلى خوفٍ بسبب تهديد الحارس، وضعت عائشة رأسها على صدر أمّها، وانخرطت في بكاء حارّ، علا عويل نفيسة وهي تنادي على ابنتها، الذي فقدهنَّ وفقدنه، خفّت صوت البكاء والعويل تدريجياً، انتظم نفس الأربعة، وكِدْنَ أن يسقطن في بئر النوم، لولا أصوات جلبة اقتحمت الغرفة، فزعت النساء، ووقفن يحتضن بعضهن، محاولات طمأنة الأخريات، والاطمئنان بهن.

تعالت الجلبة، وكأنَّ شخصًا ما يطرق الحديد الموضوع على الشباك المرتفع بقضيب معدني، ثم يسمعن صوت وقع أقدام آتيا من الدهليز، ثم طرقات على الباب، وبعدها تعود الطرقات على حديد الشباك.

سيطر الخوف عليهنّ، بدا لهنّ أنّ قبيلة من العفاريت تسكن المكان، وهنّ قد احتلن مسكنها، وأصحاب المكان وسكانه لا يريدون شريك، انكمشن على أنفسهن، ورددن ما يحفظن من قصار سور القرآن، لكن هيهات فلم ينته رعبهن، ولم يعد لهنّ الهدوء كذلك.

بعد الفجر بقليل توقفت الضوضاء، وانفتح باب الغرفة، نبه صرير الباب النسوة للباب المفتوح نصفه، ففزن هاربات خارجات من سجنهن متجنبات لعنات الجان، هكذا قضين ليلتهن الأولى ما بين رجاء ورعب وسهاد ودعاء بأن ينجيهن الله من يد ساكن المكان.

قادهن أغا شرعب لحمام القصر، وقف خارجه؛ تقدّم النسوة الأربعة لداخله بعد ساعتين خرجن في ملابس لم يخطر بالهنّ أنهن سيرتدينها يومًا، على رؤوسهن طرايش زاهية اللون، ملفوف حولها مناديل غامقة مثبت عليها من الجهة اليمنى مشابك فضية محللةً ببعض الفصوص الزجاجية البراقة، أما شرابية الطربوش كانت من الحرير الأزرق، والذي تجمع في الجهة اليسرى من الرأس.

ارتدت الفتاتان صدريتين طويلتين، وسروالين من قماش منقوش عليهما أزهارًا كبيرة ملونة، على وسطهما شدًا شالين من الكشمير المقصّب، أظهر الحمّام جمال بشرتهن البيضاء المشربة بالحمرة، تهادت السيدتان في عباّتين فضفاضتين من الموسيلين، مشقوقة من الجانبين، تحتهما سروالان من الحرير الأحمر، على وسطهما شال من الحرير زاهي الألوان، معقوص من الجانب الأيسر، منسدل من الجانب الأيمن.

أعادهنّ الحارس لمجلس جلفدان هانم، بعد أن أكّد عليهن بأن لا يقتربن منها، عليهن الوقوف على بُعد مترين على الأقل، بعد أن يُظهرن لها فروض الولاء والطاعة.

وقفت جارية تصبّ الماء على يد جلفدان هانم من إبريق ذهبي مطعم ببعض الأحجار الكريمة الزرقاء والحمراء، سلمتها جارية أخرى واقفة بجانبها منشفة مطرزة بخطوط ذهبية على أطرافها، رفعت جارية ثالثة صينية كان عليها بواقي إفطار الهانم، حملت جارية رابعة الطست الذهبي، وانصرفن جميعًا، اقتربت نفيسة من الهانم، وقبّلت طرف ثوبها كما أخبرهن الحارس، وعادت لتقف خلف النسوة، تقدمت لالا زار وقدمت فروض الولاء والطاعة، تقدّمت بعدها فاطمة، وفعلت كما فعلت خالتهن وأمهاتهن، انتظرت الهانم تقدّم عائشة، فتسمّرت في مكانها، ووقفت كتمثال لا يتحرك، دفعتها خالتهن برفق لتقبّل طرف ثوب الهانم، نظرت عائشة نحوها

وهزّت رأسها رافضة، احمرّ وجه الهانم من الغضب، صفقت؛ فمُثِل في لحظة حارسان أحدهما يبدو ضعيف النظر، بعينين ضيقتين، والآخر طويل مخيف بعينين حمرأوين، ذكرتهن بقصصهن الخرافية عن الغول، أشارت لهما نحو المتمردة، قبضا عليها، فحاولت التخلص منهما وهي تصيح، لا مناص أوامر الهانم كانت حادة وقاطعة:

- لا أريد أن ألمح وجه تلك الشقية بعد ذلك، ستبقى في المطبخ حتى تصلكم أوامر أخرى.

سحب الحارسان عائشة وهي مستسلمة لهما، توسلت لالا زار الهانم بأن تعفو عن ابنتها بحجة أنّها ما زالت صغيرة، ولا تدرك ما تفعل، ذرفت الدموع تحت قدميها، توسلت الخالة سيدة الحرملك، التي أشارت لهما بيدها بأن يصمتا، اتكأت على جانبها الأيمن في انتظار نرجيلتها، لحظات وكان المبسم المطعم بالأحجار الكريمة بين شففتيها، ابتسمت لهن وهي تنفث الدخان نحوهن، خرجت الكلمات من فمها مخلوطة بدخان النرجيلة:

- أنتن ضيوف، ستمكثن هنا لأجل غير معلوم، واجب ضيافتكن لمدة ثلاث ليال، مرت واحدة وباقي لَكُنّ اثنتان، بعدهما ستعملن هنا في الحرملك.

أشارت نحو فاطمة، وسألتها:

- أنتِ يا صغيرتي، ماذا تجيدين؟

ابتسمت نفيسة وهي سعيدة بأن الهانم نادت ابنتها بصغيرتها،
وقبل أن تردّ الصغيرة، بدأت أمها في الكلام:

- إنها ابنتي فاطمة، تجيد...

قاطعتها الهانم في حدّة وبصوت جافّ:

- لم أسالكِ أيتها العجوز الشمطاء، لا أحد ينطق أو يتحرك هنا إلا
بإذن مني، ماذا تتقنين يا صغيرة؟

- سيدتي أنا أجيد الطهي والحَبْز و...

- لا، هذه أعمال الخرقاء، التي رفضت أن تتشرف بتقبيل طرف
ثوبي، هل تجيدين شيئاً آخر؟

- نعم يا مولاتي، أجيد الغناء والرقص.

انفرجت أسارير الهانم، وأشارت لها بمبسم نرجيلتها:

- حقًا! سأسمعك قريبًا، لو أعجبني غناؤك سأمنحك هدية قيمة،
وأنتما ستقفان على باب الحرملك من الداخل لاستقبال الضيوف،
ستبدآن عملكما بعد انتهاء فترة ضيافتكما، أما أنتِ يا صغيرة
سأسمعك الليلة، والآن يمكنكين الانصراف وتناول فطوركن، لا بد أنكنّ
جائعات.

توقفت نفيسة وفي عينيها رجاء، لاحظت الهانم ذلك، نظرت نحوها وسألتها:

- ماذا تريدين؟ هل تريدين عملاً أسهل من استقبال ضيوفنا؟

- لا سيدتي، لي سؤال وأدعو الله أن يكون جوابه عندك.

- ما هو؟

- لي ابن اسمه أحمد، هل تعلمين عنه شيئاً؟

- اطمئني، هو بخير، كل ما أعرفه أنّه سيعود سالمًا بإذن الله، عندما يعود، سيحضر ويأخذكن جميعًا، والآن دعيني أكمل نرجيلتي.

ذهبن خارج المجلس إلى إحدى الغرف المفتوحة عليه، جلسن حول صينية ليأكلن، وهدأت قلوبهن واطمئننَّ على أحمد ولو مؤقتًا، بينما اشتعلت نار حرقتهن على عائشة، الجوع يقرص بطونهن، والفراق يغص قلوبهن، وسيدة تستمتع بنرجيلتها لا قلب لها ولا تشعر بوجودهن.

(12)

الدرويش

وقف أحمد فوق تلة من الرمال من على بُعد تعالت شُحْب من الأتربة،
كلما اقتربت الشُحْب، ارتجت الأرض تحت قدميه، نظر نحو الأفق البعيد
منتظرًا وصول الألفي وسط جنوده، تأكد من سلاحه فرصاصة واحدة لا بد
أن تكون كافية لإنهاء مهمته، عاد لفرسه الأشهب، ربت على جبينه ومسح
على عُرتِه برفق، عليه أن يكون هو الآخر مستعدًا ليهرب به، فلو تمكنوا منه
لأذاقوه العذاب، حتى يصبح الموت أمنية عزيزة صعبة المنال.

رجف قلبه وجف حلقه عندما مرَّ في مخيلته ما قد يحدث له إذا ما تمكن
منه رجال الألفي، عاود النظر لفرسه ففكر في العودة، تراجع على الفور عن تلك
الفكرة فعائلته في قبضة من لا يرحم، تداعت الأفكار في عقله، لماذا لا يذهب
ويعترف للألفي بمهمته، التي أتى من أجلها؟ وقتها سيساعده لاسترجاع ذويه،
تراجع عن فكرته بسرعة لربما قتله الجنود قبل أن يصل لسيدهم؛ أو يأمر بقتله
بعد أن يعرف أبعاد المؤامرة، ما هو مصيرهم إذا حدث هذا؟

مع اقتراب سهيل خيول الألفي، عاد إليه وعيه، تأكد من أن فرسه في مأمن بعيد عن أعين الجيش القادم، انبطح على الأرض، ثبت بندقيته أمامه وظل ساكنًا في انتظار مرور هدفه.

طال انتظاره وها هو موعد خلاصه قد اقترب، صوت ديبب الجيش وهرجه يعلن عن وصوله، انتبهت حواسه وأصبح كل شيء واضحًا أمامه، دقائق ويعود بفرسه لعز الدين، سيمنحه الباشا عطية كبيرة، سيبنى بيتًا كبيرًا، سيتزوج عائشة في أقرب وقت، سيتاجر في إحدى الوكالات الكبيرة، وربما في يوم من الأيام سيكون من أعيان المحروسة، سيجلس مع كبار علماء البلد، سيدعوهم إلى بيته، ويحتفي بهم، وسيكون له حرمك كبير، سينجب كل عام طفلًا وربما طفلين، وستبقى عائشة هي الملكة على عرش مشاعره وسيدة الحرمك.

على حين غرة رفع فرسه ساقبه الأماميتين وصهل، قبل أن ينظر نحوه كان هناك ما يزيد عن خمسة سيوف فوق رقبته، وأقدام كثيرة تعتلي ظهره، شعر بوخز في رقبته، ويد تهزّه بقوة، ارتعدت أوصاله، واعترى الخوف قلبه الواجف، أغلق عينيه منتظرًا السيوف أن تقوم بدورها.

فتح عينيه على مهل، وجد لحية طويلة؛ ملابس بالية قدرة، أحد دراويش السيدة نفيسة غرز أظافره في عنقه، وهزّه بعنف يوقظه لاقتراب موعد صلاة الفجر، تلفت حوله وهو يلهث، حمد الله على أنه كان مجرد حلم، توافد المصلون إلى ساحة المسجد حيث قرر أن يقضي ليلته؛ تبركًا بها لتحميه في مهمته كما تحمي القاهرة.

توضاً وهو لا يصدق نفسه بأنه في مأمن من سيوف الألفي، ارتفع صوت المؤذن بتكبيرات الأذان، رفع يديه وهو واقف أمام المحراب يدعو الله بأن ينجيه ويعيده سالمًا هو وأهله، سالت الدموع من عينيه وبلل الفرش السندسي ولسانه لم يتوقف عن الدعاء، هزته يد الدرويش المتعرق، مسح دموعه ونظر إليه بعينين أجهدهما الرمد اختبأتا خلف حاجبين تهدلا كستارتين تأكلان من شمس الصيف الحارقة، صاح في وجهه:

- قل يا ربّ، شيء لله يا طاهرة.

هزه الدرويش مرّة أخرى وهو ينهره:

- قل يا ربّ.

- يا ربّ ما لي سواك، يا ربّ أنت تعلم ما لا أعلم، وعلمك بحالي يغني عن سؤالِي.

خرج الدعاء منه صادقًا مخلوطًا بدموع الرجاء، لا حدود بينه وبين عرش الرحمن، تتمم الدرويش، وذهب بعيدًا، وهو يردد:

- شيء لله يا طاهرة، مدد يا آل البيت مدد.

صلّى ركعتي السنّة، وانخرط في البكاء، وهو ساجد بين يدي خالقه، شَعَر بمدى ضعفه، أدرك ضآلته وسط الكون الفسيح، دعا ربه بكلمات لم يشعر بها وهي تخرج من فيه، خرجت من قلب يشعر باليأس، واستبدّ به الخوف، تذكّر أنّه لا يقنط من رحمة الله إلا الكافرون، ولا خوف إلا من ربّ

العالمين، لم يتوقف سيل دموعه، اعتدل وقرأ التشهد، وسلّم وأنهى صلاته، انتظم في الصف، وأدّى فرضه، وختم صلاته، وانطلق في طريقه مودّعًا السيدة نفيسة خلف ظهره، راجيًا أن تكون عونًا له في أيامه القادمة.

ركب فرسه، ونظر نحو حارسة القاهرة، ثم صوّب السماء، التي بدأت تلمع قليلاً بضوء النهار، داهمه الوقت، وعليه الإسراع ليعبر النيل، مسح على رقبة حصانه واثقًا بأنّه سيصل في موعده، وعلى حين غزّة ظهر له الدرويش بعينيه الغائرتين، أمسك لجام الفرس بقوة واقفًا أمامه، مانعًا إياه من الانطلاق، سحب أحمد بعنفٍ، تما لك نفسه بشق الأنف، ليبقى ثابتًا فوق الجواد، أفلت الدرويش اللجام، انطلق أحمد بعيدًا، من خلفه طارده صياح الدرويش:

- لا تؤذِ أحدًا، وإن آذوك فإنّ ربك منتقم، لا تؤذِ أحدًا، لا تؤذِ أحدًا.

تلاشى صوت الدرويش، وغاب عن نظره، ابتسم ساخرًا من نصيحة الدرويش، الذي لا يعي النار المتقدة في صدره، ولا يدرك مدى الرهبة المسيطرة عليه، الخوف هو وقود القسوة، وقسوة القلوب هي علة كل شرور هذا العالم، نظر أمامه وانحنى محقرًا الحصان ليطوي الأرض طيًا.

ترجّل أمام الميناء، قبض على يده اليسرى، ورفعها للأعلى بمساواة كتفه كما أمره عزّ الدين أن يفعل، كإشارة متفق عليها، تقدم باتجاهه جنديان، تسلّم أحدهما الحصان، وأخذه بعيدًا، قاده الآخر نحو المركب، لم ينبس بأي كلمة، وبقي وجهه عابسًا وهكذا كانت التعليمات.

ظهر قرص الشمس على استحياءٍ، انعكس ضياؤه على صفحة النيل، لم يبدد النور مخاوفه، على العكس أظهرها جليّة أمام عينيه، عليه أن ينتقم من جاره الوغد، سيقته بكلّ تأكيد، ثم ينطلق نحو أمير المماليك الأكبر، يتسلل إلى فراشه، ويخمد أنفاسه، ويعود للباشا ليتسلم جائزته، وليسترد عائلته، ولربما وجد بعد ذلك من يدفع له ليغتال الباشا.

على الجانب الآخر من شاطئ النيل، قبض على يده اليمنى ورفعها للأعلى، تقدم منه جندي، مسرعًا أعطاه ملابس جندي مملوكي وسيف، هكذا بدأت الخطة تتضح له، سيتنكر في زي جندي من جنود الألفي يغافله ويطنه، ثم يفتر مسرعًا للباشا.

قاده الجندي ليس بعيدًا عن شاطئ النيل، أعاد له حصانه، وهمس له:

- اركب هذا، واطلّق له العنان، قبل أن تدخل أول بلدة تمرّ عليها غير ملابسك، وعلّق سيفك، لا تتحدث مع أحد في الطريق، هناك من ينتظرك على الطريق، أنصت له، وكن مطيعًا.

ربت الجندي على عنق الحصان وأضاف:

- اطمئن فهو يعرف الطريق.

هزّ أحمد رأسه موافقًا، قفز فوق جواده، وانطلق تاركًا خلفه الجندي، سار به موازيًا لشاطئ النيل، كان هواء الصباح المنعش يداعب بعض خصلات شعره الأسود الناعم، والتي خرجت من تحت غطاء رأسه المزركش،

أنعش الهواء نفسه قليلاً، عليه أن ينفذ ما يُطلب منه، حتى يستعيد أهله، جذوة غضبه على مقبل متقدمة، حاول أن يحسم أمره، ما زالت رحلته في بدايتها، وعليه أن يقرر، هل ينتقم من ذلك الوغد أم لا؟ أم يؤجل هذا حتى يسترد ما فقده؟

ما زال في أول الطريق، وها هي أكواخ الفلاحين تلوح له من بعيد، تبدو له كأشباح خرافية مستترة خلف ضباب الصباح، أوقف رفيق سفره وترجل من عليه، غير ملابسه كما أمر من قبل، نظر في صفحة النيل، هاله ما رآه جندي مملوكي في كامل هيئته، لو لم يكن يعرف نفسه جيداً لفرَّ هارباً من وجه هذا الأمير.

تأمل القرية التي لاحت له بعض تفاصيلها من قبل، نخل باسق يحاول اختراق السماء، ينظر في غرور إلى أبراج الحمام المستكنة في هدوء تحته، أسراب صغيرة من البط تسعى على طول النيل، درجات حجرية غير مستوية تنتهي بمصطبة صغيرة مغمورة تحت مياه النيل، بجوارها على الشاطئ مُصلّى صغير مفروش بقش نظيف، ظللت عليه شجرة صفصاف، كامرأة عجوز تغسل شعرها في مياه النهر المقدس، أكواخ صغيرة متناثرة كقروح انتشرت على وجه زوجة قبيحة فآزداد نفور زوجها منها، البؤس يبدو واضحاً عليها، كيف تعيش أسرة كاملة مع حيواناتها في مثل هذا المكان الضيق؟! تبسم عندما تذكر أنه عاش مع عائلته، وحمارهم في منزل لا يفرق كثيراً عن هذه الأكواخ، كانت رائحة البيت مقرفة، تثير الغثيان، لكنَّ حُبّه الشديد لحماره جعله يتغاضى عن أيِّ رائحة، لا بد أن أصحاب تلك البيوت أيضاً يحبّون حيواناتهم، ولا يشعرون باشمئزاز من رائحتها.

سار بفرسه على مهل متأملاً الحقول المكسوة بالخضرة، أرض طيبة تمنح فلاحيتها خيرها ثواباً لعملهم ومجهودهم فيها، يناضلون طوال نهارهم فيها، يكدحون آمليين أن يرزقهم الله من حاله، ويسعون نحو عملهم بأجسادهم ووجوههم السمراء النحيلة، عيونهم السوداء الغائرة، تنم عن اعتلال صحتهم وفقر معيشتهم، يجرون خلفهم أبقارهم وجواميسهم.

لاح لهم الأمير المملوكي من على بعد، يسير بجواده على مهل، فدبّ في قلوبهم الرعب، ثرى ماذا سيفعل معهم هذا الأمير؟ هل سيسلبهم حيواناتهم بعد أن يجلد ظهورهم، ولربما يقتل من يقف في طريقه، قد يهجم على منزل أحدهم ويغتصب من فيه من النساء، سيسبي بناتهم ويبيعهن في أسواق النخاسة، أو يضرم النار فيه على من بداخله إذا ما امتنعوا عنه، احتاروا في أمرهم؛ فرّ واحد منهم وقفز في النيل راكباً على ظهر جاموسته مبتعداً عن طريقه، أملاً أنه لم يره، واختبأ أحدهم متسلماً شجرة حاملاً عنزته فوق كتفيه، تسمر الباقيون على جانبي الطريق يلتهمهم الهلع كما تلتهم النار الحطب.

(13)

الرمال المتحركة

توقف أحمد عن المسير، ما رآه أعاد لذاكرته ما كان يحدث عندما يهاجم أحد أمراء المماليك وجنوده حارتهم، حيث يدوي العويل والصراخ في كل مكان، ويهرول التجار لغلغلة محلاتهم، ومن لم يتمكن تصبح بضاعته مباحة، الكل مُعرّض للسلب والنهب والقتل، لا رحمة ولا تهاون فيما أتوا من أجله، لا بد أنّهم يشعرون الآن بما شعر به من قبل عندما داهم الجنود حارتهم.

وكز حصانه وانطلق بعيداً، أخذ قليلو الحيلة خلفه ينظرون إليه وهم في حالة من التعجب، لأنّه لم يهاجمهم، لم ينظر نحوهم، لأنّه لا يستطيع أن ينظر في عيون يملأها الخوف، رغم أنّه وبكل تأكيد يتمنى أن يتمتع بهذه النظرات في عين مقبل.

مَرَّ في طريقه على العديد من القرى، لم يتوقف أو يبطئ
من سرعة حصانه، لا داعي لتكرار ما حدث من قبل، يكفي ما
شعر به أهل محطته الأولى، ظلَّ هكذا حتى لاح له بحر من
الرمال الصفراء لا آخر له، اطمئن بأنَّه لن يزجج أو يخيف أحدًا
الآن.

طوال طريقه والفرس يسرع في طيِّ رمال البیداء، داهمته
سحب سوداء من ذكريات طفولته، مرت حياته القصيرة أمامه
كخيالات، وما ينتظره في مستقبلٍ مبهم الملامح، كرياح
خماسين حجبت الرؤية عنه، طفولة قضى معظمها في عريِّ تام،
فلم يجد ما يدفئه في برد الشتاء إلا حضن أمه، وغطاءً قديمًا
خشنًا من الصوف، لم يكن هناك ما يحميه من شمس الصيف
الحارقة سوى ظلِّ البيوت في الشوارع، لم تمكّنه ظروفه من
أن يلتحق بكتّاب الحي؛ ليتعلم القراءة والكتابة، وبعض قصار
السور من القرآن، تمنى أن يذهب إلى هناك ولو لمرة واحدة
مع مقبل، الذي يريد قتله الآن، هل يريد ذلك انتقامًا منه لأنّه
تمتع بالقليل من العلم والملابس وأشياء أخرى حُرِم هو منها
في طفولته؟ أم لأنّه السبب في ضياع حاضره ومستقبله الآتي؟

أيذهب العمر هباءً؟ أحلام تخدرنا حتى لا نشعر بوطأة مرارة
واقعنا، تخيلات تحول صحاري الحياة مروجًا خضراء، لنصحو
على الحقيقة، درب طويل لن ينتهي مهما أسرعنا، وعمر قصير

مهما طال، لم يجد جوابًا وافيًا لسؤاله، حقًا إنَّ الإنسان، الذي لم يَعِش ماضيًا يشرف به، لا حقُّ له في حاضر ينعم به، أو مستقبل يأمل فيه.

التهبت الشمس في السماء، وانعكس ضياؤها وحرارتها على الرمال المحيطة به، كثبان من الرمال تعلو وتهبط حوله، وأحجار كئيبة منتشرة في كلِّ مكان، لا شيء يلفت الاهتمام، خصوصًا بعد أن صمَّ الهواء أذنيه، تخيّل أنَّ صراخ طفل يصل إلى مسامعه، هل يهذي؟! ربما، أو من الجائز أنَّه سراب سمعي تسرَّب إلى نفسه في هذا الفضاء الموحش.

عاد الصراخ يخترق سمعه مرّة أخرى، وليس بسراب أذن، أوقف فرسه وتلفت حوله، فلا شيء إلا الرمال وكثبانها، عاد الصراخ يخترق أذنيه، يأتي من أمامه على اليسار، اتجه نحو الصوت، تخيّل أن النداهة هي من تصدر هذا الصوت، تمكن الهلع من نفسه، توقف عن المسير، نظر حوله مرّة أخرى، لا شيء لا أحد لا وجود لأيِّ جنس من البشر في هذه الصحراء الشاسعة.

تذكّر أوامر الجندي، الفرس يعرف المكان، وسيوصله دون توجيه منه، يجب أن لا يتحدث مع أحد حتى يصل إلى المكان المنتظر، عليه أن يطيع الأوامر حرفيًا حتى يُكمل مهمته، لا يمكنه تجاهل النداء النابع من بين الرمال مهما كانت

العواقب، الصراخ واضح ويستطيع أن يميّزه، إنّه صراخ وبكاء حار لطفلٍ، ربما يكون هناك خلف هذه التلّة الرملية المرتفعة، لا ضير أن يذهب ويلقي نظرة، لو لم يجد شيئاً؛ سيترك العنان لفرسه ينطلق حيث يعلم.

ببطءٍ شديدٍ وحذرٍ صعد التلّة، زاد وضوح الصوت، طفل يبكي من الألم، وقف عند قمة التلّة، ونظر، فوجد - ليس ببعيد عنه - طفلاً، مغموراً نصفه السفلي في الرمال، سمع من قبل سيرة عنتره بن شداد حين كادت أن تلتهمه الرمال المتحركة عندما كان يُحضر مهر محبوبته عبلة، ستلتهمه الرمال في باطنها إذا ما اقترب، سيغوص فيها حتى يختفي، الويلٌ لتلك الرمال التي تبتلعنا أحياء!

نظر الطفل نحو أحمد بعينين أرهقهما البكاء، وجهٌ صغير سالت الدموع من مقلتيه، فشقت أودية من الطين وسط رمال تعقرت بها وجنتاه، أشار إليه أن اقترب، ربت على صدره راجياً أن ينقذه، توقف أحمد والدهشة تملأ عينيه، كيف لم تبتلع الرمال هذا الصغير؟ وقتها أدرك أن هذه مجرد رمال عادية، وليست متحركة، ترّجل من على فرسه، واقترب من الصغير، أمسك الطفل بسرّواله الفضفاض متوسلاً أن يخرج من الحفرة المردوم فيها نصفه السفلي.

لم يدرك أحمد حتى الآن سبب دفنه بهذه الطريقة في الرمال، أو الداعي من وجوده في مكان موحش مثل هذا، هل تاه من والديه مثلاً؟ أو ربما تخلف عن قافلة مرّت من هذا الطريق، سيسأله بعد أن يخلصه من ورطته، انحنى ليزيل الرمل من حول الطفل، وقبل أن يزيح أول حفنة من الرمل، وجد شيئاً حاداً يُنغز في ظهره، تدكّر حلم ليلة البارحة، هل اكتشف أمره؟

نظر خلفه، وإذ برجلين من العربان، يضع أحدهما - وهو الأقرب له - سيفه على ظهره، والآخر يقف بعيداً عنه بخطوات ممسكاً بقوسه، وقد شدّه مستعداً لإطلاق سهمٍ موجه لصدره، بادره صاحب السيف سائلاً:

- ماذا تريد أيّها الجندي؟

وضع يده اليسرى على خصره، وباليمنى قبض على مقبض سيفه، حاول أن يُظهر التماسك، آملاً أن تدفع بذلة الجنديّة الأذى والشرّ الواضح جلياً في عيون العربان، نظر نحوهما متظاهراً بعدم الاكتراث، وأجاب وهو يزيح الرمل من حول خصر الطفل:

- منكما؟! لا أريد شيء مطلقاً.

- ماذا تريد من هذا الطفل؟

- لا شيء أيضًا، يبدو أنه تائه عن والديه هنا، ولسبب مجهول
دُفن في الرمل، حتى خصره كما ترى، سأخرجه وأعيد له لأبويه.

- لا شأن لك به، أنا أبوه.

تبسم أحمد متعجبًا قبل أن يسأل:

- ولماذا دفنته هكذا إذًا؟

- لا عليك أنت، نحن أعلم بما نفعل، عليك أن تغادر الآن.

توقف عن إزاحة الرمل من حول الطفل، وهمّ بالوقوف،
أمسك الطفل بيديه وهو يبكي قائلاً:

- لا تصدقه، إنه ليس أبي، لقد اختطفاني من أسرتي،
وأحضراني عند دير بالقرب من هنا، وهناك فعل رجل يرتدي
السواد شيئًا ما لخصيتي، إنهما يؤلمانني، لا تدعني لهما، وحياة
النبي لا تتركني هنا.

اندهش أحمد مما سمع، غاص السيف قليلاً في ظهره
منبّهًا إياه أن هناك من يهدده، وأن حياته على المحك، تملك
الغضب من صاحب القوس، وكاد أن يفلت سهمه ليستقر في
صدر المملوك، الذي يحاول تحرير صيدهم، منعتة إشارة خفية
من رفيقه من أن يطلق سهمه، حرّك صاحب السيف نصله
محدثًا قطع صغير ببذلة أحمد وهو يحدثه في هدوءٍ مفتعلٍ:

- اسمع يا هذا، أنت الآن مجرد جندي؛ مملوك صغير، بعد عدة سنوات ستصبح أمير خمسة وربما أمير عشرة، وقتها سيكون لك بيتٌ كبيرٌ، ومن المحتمل أن يكون قصرًا، ستأتي لنا وتطلب منا بعض الأغوات لحماية الحرملك، سنخطف لك بعض الأطفال، ونخصيهم ليصلحوا لتلك المهمة، المطلوب منك أن تغادر الآن، وتترك لنا هذا الأغا الصغير حتى نبيعه لتاجر كبير في أسيوط، وصدقني إن ذهبت الآن دون متاعب؛ شيحسب هذا لك، وربما قمنا بتخفيض في الأسعار عندما تطلب منا أغوات المستقبل، لا فائدة من إثارة المتاعب، سنرديك قتيلًا، أو نكبلك ونحملك أنت الآخر للدير، ونضعك هنا في حفرة أكبر بجانبه.

كانت لغة الأعرابي واضحة، وتهديده صريح، ورغم ملابس أحمد، التي تعطيهِ الهيبة، مجرد هيئة لمملوك قوي، يبث الخوف في قلوب الفلاحين، هنا الوضع يختلف؛ هذان اللذان في مواجهته هما أسياذ الصحراء، وهو لا يجيد استعمال السيف المعلق في خصره، لو قاومهم لنفّذوا تهديدهم، الفضول يقتله، ويريد أن يفهم، نظر نحو الأعرابي بجمود غير مكترث، ثم نحو السيف المغروس في ظهره، وقال وهو ينفذ الرمل من يديه:

- لا مانع عندي ولكن هناك شرط وحيد.

- لن نعطيكَ شيئًا من ثمنه.

- ليس هذا ما أريده.

- ماذا تريد إذا؟

- أن أفهم لماذا دفنتماه في الرمل هكذا؟

- بعد أن ربط الراهب على خصيتيه فقد هذا المسكين وعيه، كثير من الأطفال يموتون أثناء تلك العملية أو بعدها بقليل، هذا المحظوظ أفاق من غيبوبته وملاً الدنيا بصياحه كما سمعت.

- لم تُجِبْ سؤالي بعد.

كاد صبر الإعرابي أن ينفد وهو يجيبه:

- سأجيبك، بعد أن فقد وعيه اعتقدنا أنه مات، أگد الراهب بأنه ما زال حيًا، لقد نقلناه إلى هنا ووضعنا نصفه السفلي في الرمل كما ترى، حتى لا يؤذي نفسه ويحك وجعه، ويكون مصيره الموت بعد أن ينزف دمه، نحن نرأف به ونهتم بحالته كما ترى، هلاً ذهبت الآن؟

- نعم سأذهب، وداعًا.

ربت على كتف الصغير، ومسح رأسه والألم يعتصر قلبه، لا عائد من مقاومته لهذين الأعرابيَّين، سيفتكان به ويقتلانه دون

شك، ولن يغيّر هذا من الأمر شيئاً في مصير هذا المسكين،
قفز على فرسه وهو يعاتب نفسه بأنّه كان يتمنى ذات يوم أن
يكون لديه حرمك واسعاً، به الكثير من الجوّاري والأغوات،
ملعونة تلك السعادة المبنية على عذابات الآخرين.

(14)

مقبل

لم ينظر أحمد خلفه فلا يستطيع أن يتخيل أن يفقد إنسان ما، غريزة وضعها الله فيه لتستمر الحياة على وجه البسيطة لينتزعها منه إنسان آخر ليقف الأول حارسًا للثاني على الأبواب وهو يمارس غريزته بكل وقاحة، لا يمكن أن يكونوا بشرًا، لا بد أنَّهُم نوع نادر من الوحوش، تمكنت من التنكّر بإتقانٍ في صورة بشرية، انْتزعت من قلوبهم كلّ معاني الرحمة، وتحوّلوا إلى حيوانات كاسرة، تتنافس دون رحمة على أنثى في موسم التزاوج، أطلقت رائحتها لتجذبهم نحوها، فيقتلون بعضهم البعض.

لم يطل تعجب أحمد كثيرًا؛ فهو مثل هذا الطفل، ليس هو وحده من يشبهه، بل كلّ من يعرفهم لا يختلفون كثيرًا عنه، كلّهم انتزع منهم شيء ما؛ الأمل في المستقبل، كرامتهم، حرّيتهم، حتى طموحهم سُرق منهم، اغتيلت أحلامهم قبل أن تولد ودفنت الذكريات في موقد اليأس.

لم يعد هناك ما يستحق الحياة، عندما تعيش مكرهاً كأنك ميت، تموت فيك الروح، ويبقى الجسد وحده يقاوم الفناء.

حارت أفكاره، هل العيب فينا نحن أم في الحُكَّام المتخمين بالثروات؟ أيجب أن نتغير ونغيّر من أنفسنا أولاً قبل أن نطلب تغيير الحكام؟ من أين يجب أن نبدأ؟ ماذا يجب أن نفعل؟ ولماذا؟ وكيف؟ ومتى؟ وأين؟ عشرات الأسئلة انهمرت عليه، وكلّ الإجابات ضلّت طريقها إليه.

ظَلَّ هكذا طوال طريقه، حتى لاح له عن بُعد خيمة صغيرة منخفضة، بالكاد ترتفع على وجه الأرض، توجّه حصانه نحوها ووقف أمامها، حاول أحمد أن يحرك الحصان، عانده، وأبى الحراك، هنا أدرك أنّ هذا هو المكان المتفق عليه.

ترجّل عن فرسه ونظر نحو الخيمة، فلم يجد فيها أحداً، دار حولها لا أحد أيضاً، الجمر أمام الخيمة يدل على وجود أحدهم بداخلها، أو ربما كان أحدهم موجوداً وانصرف بمجرد سماع وقع أقدام الفرس، صفق بيده ليعلن عن قدومه، فما من مجيب، رجع نحو فرسه ليركبه، كان قد نسي أن يربطه فهرول بعيداً عنه، ولم يعد باستطاعته اللحاق به، جلس متفياً بالخيمة، لا يلوي على شيء.

أمسك بعود حطب، وجلس يخط على الرمال ولا يدري ماذا يفعل؟ تمكّن اليأس منه، كان منذ قليل يفكر في سبب ما تعانیه

بلاده، ويبحث عن حلّ لتلك المشكلات العصال، وهو ليس إلا فاشلاً، غفل أن يربط مطيته قبل أن يبتعد عنها.

تلفت حوله باحثاً عن أيّ أثر لصاحب الخيمة، لا شيء إلا الجمر والخيمة الخالية، التي نصبت أسفل تلة صغيرة. اقترب من التلة، لاحظ وجود كهف ضيق على جانبها الأيمن، هل فرّ صاحب الخيمة بداخله عندما لمح اقترابه منه؟ وقف على باب الكهف المظلم، فتملّكه الرعب من فكرة دخوله، فقد تكون مغارة لوحش من وحوش الصحراء، أو بها خفافيش ستقتلع عينيه من محجريهما، ولن تتركه إلا بالطبل البلدي، وربما تكون مليئة بالثعابين أو العقارب، التي يخشاها كثيراً، وقبل أن يولّي الأدبار، إذ بيد تربت على كتفه؛ فقفز مرعوباً وجري يحتمي بالخيمة، وكأنّها قلعته التي ستحميه من الأعداء المحاصرين له، كانت ضحكات مقبل العالمة المتواصلة تشق صمت البيداء دون خجل.

تعرفّ على صوت جاره القديم، فهدأ روعه قليلاً، ومع ذلك تضاعف حنقه عليه وغبه منه أضاعفاً مضاعفاً، جلس على الأرض يلتقط أنفاسه بعد أن أحكم قبضة يده على مقبض سيفه، فهو سيقتله الآن لا محالة.

اقترب منه مقبل في تودة وثقة، ووقف أمامه ومدّ يديه ليصافحه، حاول أحمد أن يستل سيفه من غمده فقدم مقبل كانت أسبق لتحول بينه وبين ذلك عندما ضغط بها على يديه ليمنعه،

نظر في عينيه نظرة الواثق الشامت، نظرة يشوبها التشفي والانتصار،
وببطء رفع قدمه وهو يبتسم قائلاً:

- تريد قتلي وأنا أريد لك الخير؟!

- تريد لي الخير فتخطف عائلتي! كيف لي أن أصدق هذا؟!

انحنى مقبل وأخذ السيف من غمده، وعيناه تقدحان شرراً،
ووضعه على رقبة أحمد، ووخزه بطرفه المدبب، وهو يفر منتصراً:

- ما رأيك أن أقتلك الآن؟ نعم يمكنني ذلك، وسأواري جثتك خلف
هذه المغارة لتكون عشاء لذئاب الصحراء، هل ترغب في ذلك؟

لم ينطق أحمد ببنت شفه، إحساسه بالفشل سيطر عليه تماماً،
فحاول أن يتماسك أمام غريمه، فوقف على قدميه، ما فعله مقبل
كان مبالغاً ومفاجئاً، ناوله السيف في يديه، ووضع طرفه على قلبه،
وصاح فيه:

- كنت تريد أن تقتلني، والآن يمكنك ذلك، لا تتردد يا جاري
العزیز.

خارت قواه وسقط السيف من يده، فتمنى أن يقتله لكنه
يعيش داخل جُبنه، كحشرة تشرنقت في طور نموها، سيبقى
داخلها حتى يضعوه في شرنقة بيضاء، قبل أن يصلوا عليه، من
شرنقة الجُبن إلى شرنقة الموت طريق طويل مملوء بالخزي والعار،

ليته يستطيع، لا يحتاج ذلك لمهارة استخدام السيف، مجرد دفعة ضعيفة وينهي الأمر، قلبه لا يطاوعه على هذا، يخاف من لون الدم ورائحته، كما أنه يحتاج إليه بالفعل، بصق مقبل على الأرض أمام أحمد، ونظر إليه باحتقار، ودخل الخيمة، وحفر تحت أحد أعمدتها، فاستخرج لفافة، وعاد بها نحوه، رماها تحت قدمه وهو يأمره:

- اخلع تلك الملابس، فأنت لا تستحق أن يلمس جلدك مثلها، ارتد هذه الملابس واتبعني، سأنتظرك هناك في الخيمة.

لم يلتفت أحمد نحو جاره القديم، فضّ اللفافة وخلع ملابس الجندي المملوكي، وارتدى ملابس أوشكت أن تكون بالية، وإن كانت نظيفة، لاحقه صوت مقبل من تحت الخيمة:

احضُر ملابس الجنديّة معك.

جمع الملابس والسيف، وحملها وتوجه ليستظل في الخيمة، ابتسم مقبل ساخرًا وهو يقول له:

- هذه لا تناسبك، ما لك أنت وما ل شرف العسكرية.

- عن أيّ شرف تتحدث؟ ما هم إلا لصوص اشتريناهم بأموالنا فتسلطوا علينا.

- هم أسيادك، هم أولاد الناس يا عديم الشجاعة.

- أنت تعلم جيداً لم نسميهم بهذا الاسم.

- لماذا يا حكيم زمانك؟

- لأنهم عديمو النسب، لا نعرف لهم أباً أو عائلة، ولأننا شعب طيب لم نود أن نصدّمهم بحقيقة هم يعلمونها جيداً، ويتهزّبون منها، فأطلقنا عليهم هذا اللقب.

- تبهرني بتحليلاتك، والآن جاء دورك أيّها الخاسر.

اعتدل أحمد في جلسته مستشعراً أن لحظات الخطر، التي لم يعتدها قد داهمته، حاول أن يراوغ علّه يستخرج منه معلومة تزيح الحزن من على قلبه:

- لا دور لي إلا إذا عادت عائلتي لبيتها.

- لا تراوغ يا فتى وإلا ستبحث عنهن في بيوت اليسرديات⁸، هذا إذا قُدّر لك أن تعيش.

- لقد كنت أحاً لي، وكنثُ أعتبرك قدوتي، لماذا تفعل هذا بنا؟

- لأن في هذا ربحاً لي، أقدمك للألفي بك وهو يعتبرها خدمة مني، وأنت في الحقيقة رسول الموت إليه من قبل الباشا الجديد، أضرب عصفورين بحجر واحد، إذا ما ثبتّ الباشا أقدامه في الحكم كنت من

8- بيوت لبيع الجوارى والعبيد.

رجاله، وإذا انتصر البك كنت من أتباعه، وصاحب فضل قديم.

- ومع مَنْ أنتَ في الحقيقة؟

- مع الجميع وضدهم في نفس الوقت، هل تتذكر عندما أخذ الأتراك حمير الحارة، وكان من بينهم حمارك؟

- نعم بالطبع.

- أنا من دلّهم على البيوت التي حُبّئت فيها الحمير، مقابل أن يتركوا حمارنا، هل فهمتَ مقصدي؟

علت الدهشة وجه أحمد، وهز رأسه نافيًا رافضًا التصديق، أكمل مقبل حديثه كمعلم يلقي بدرسه على تلميذه.

- أنا كنتُ أتعامل مع الأتراك والمماليك، وعندما حضر الفرنسيون؛ لم أتردد في التعامل معهم، لستُ كخادم أو طاهٍ مثلك، لا، أنا أكبر وأهم من ذلك بكثير.

- ماذا كنتَ إذًا؟

- كنتُ عينهم في الأزهر، عندما كاد أبوك أن يفقد حياته، عندما ثار مع من ثار عليهم.

- وما وجه الفائدة من ذلك؟

علت ضحكة مقبل، حتى كاد أن ينقلب على قفاه، استند على ذراعيه خوفاً من الوقوع، تمالك نفسه حتى وقف على قدميه:

- الفائدة! كثير من الأموال، أتعلم أن هذه آخر مهمة أقوم بها؟

- هل تبتّ إلى الله؟

- تضحكني سذاجتك يا جاري القديم، بعد أن تنتهي هذه المهمة، سأغادر تلك الحارة الحقيرة لقصري الجديد، وهناك حرمك مكتظ بالجواري من كلّ شكل ولون، وعندما أستيقظ من نومي، أذهب لوكالتي في الغورية لأجمع أرباحي.

- من أين لك كلّ هذا؟

- من أمثالك أيّها المغفل.

انحنى وحفر في وسط الخيمة تماماً، وأخرج زجاجة، ويحرص وضعها بين يدي أحمد، حمله فيها وسأل:

- ما هذه؟

- هذا نوع جديد من الشّم، كلّ ما عليك هو أن تضع للألفي بك نقطة واحدة منه في طعامه في كلّ مرة، نقطة واحدة، لا تزد عن ذلك.

- وماذا إذا رآه أحد معي؟

- لا تهتم بذلك، فقط أخبره أنّه نوع من أنواع المحسنات، التي تستخدمها، ولا ضير إن أخذت منه أمامه ليطمئن.

- أتريدني أن أتناول السم بيدي؟

- لا تخف، القليل لا ضرر منه، هذا النوع من السم لا يظهر أثره إلا بعد التناول منه لعشرات المرات، والآن علينا الاستعداد، لأنّ جيش البك على وشك المرور من هنا حيث تلتحق بركبه.

أخذنا معاً في فكّ الخيمة بسرعة، فصوت سنابك خيل البك تردد معلنة قرب بدء أحمد لمهمته، وانتهاء مهمة مقبل.

(15)

الحرملك

على مهل دَبَّ النشاط في حرملك «صالح قوش» بك، انتشرت بعض الجاريات الحبشيات في زيَّهنَّ الأزرق السماوي الفضفاض في المكان، يرتبَّنه وينظفَّنه، مرت رئيستهنَّ تعطي تعليماتها بكلِّ وضوح وصرامة فهي تعلم تقاليد هذا الحرملك جيِّداً، كما أنَّها على علم بدوق كلِّ سيدة هنا، ومكانها المفضل، ولم لا؟ وهي من عاشت في خدمة جلفدان هانم من قبل أن تحضر إلى مصر.

كانت أول الواصلات رينا، دخلت بنت السبع سنوات مختالة في ثوبٍ أبيضٍ طويلٍ، نُقِشت عليه وردات بألوان وأحجام مختلفة، جلست في ركنها المفضل في القاعة الصغرى، بعد أن فرشت جارياتها المرافقة لها مفرشاً من السَّتان الأصفر، على مرتبة منخفضة نسبياً عن باقي المراتب الموجودة في أركان القاعة، لم يكن هذا يضايقها، فعُلِّو المرتبة وارتفاعها مرتبط بترتيبها في

الحرملك، نعم هي ابنة صالح قوش بك لكنّها الصغرى، ولن تتساوى الرؤوس في حرملك تسيطر عليه جلفدان هانم، التي تضمّر الغيرة لأُمّ رينا، تلك الجارية الروسية، التي صارت في أقلّ من سنة من وصولها قصر الباشا زوجة له، تمنّت أن يتركها في بلادهم عندما استدعاهنّ لمصر، كانت أوامره محددة وواضحة أن تحضر كلّ النساء.

أشارت رينا لوصيفتها، والتي تكبرها ببضعة أعوام، اقتربت على الفور من سيدتها، وطلبت منها أن تحضر لها كوبًا من شراب الورد، الذي تحبّه كثيرًا، همست لها الأخرى بأنّ أوامر الهانم لا شراب قبل تناول الإفطار، أشاحت بوجهها بعيدًا عن خادمتها، وهي تلعن جبروت زوجة أبيها، وسيدة الحرملك، وتنبذ عجز أمّها، الذي جعل عجوزًا خرقاء تتحكم في كلّ نسوة هذا القصر.

تقاطرت النسوة على الحرملك، دقائق وكان المكان يعجُّ بالحركة والنشاط، على صواني واسعة رُصّت أصناف الطعام لوجبة الإفطار، تجمّعت الأميرات - بملابسهن الفضفاضة بألوانها الزاهية، وقليل من مجوهرات الزينة - حول الصواني، تناولن وجبتهم ووقف الخدم والجواري يحملن أباريق مذهبة، وطسوت ومناشف حريرية، مشغولة بأشكال رائعة، وقفن يتضورنّ جوعًا في انتظار إنهاء أميراتهن فطورهن، ليصببن لهنّ الماء، ويغسلن أيديهن بماء رقرق في الطسوت الذهبية.

تسابت الجوارى فى رفص الصوانى؁ وما تبقى كان كافياً لإشباع جوعهن؁ جلست سيدة الحرملك بجسدها السمين متكئة على جانبها؁ وصرها الأبيض الكبير يكاد يختنق من ضيق ملابسها؁ أشارت لجارية قريبة منها أن تحضر النرجيلة؁ أسرعت لتلبى طلب سيدتها؁ واصطدمت على الباب بنحلة الواقف بطوله الفارع؁ وبشرته السوداء الداكنة؁ وشفطيه الغليظتين؁ وأنفه الأفطس الكبير؁ لم يلتفت للجارية؁ التى كادت أن تقع عندما صدمته دون قصد؁ وهى مسرعة لتحضر نرجيلة سيدتها.

لا يتذكر «نحلة» كثيراً أيام طفولته؁ يعى تماماً أنه كان يعيش وسط قبيلته فى غابة واسعة لا آخر لها؁ كانوا ينادونه كباشى؁ أو ما شابه ذلك على ما يُعتقد؁ وقع فى شرك بعض الناس الغرباء ذوى البشرة البيضاء؁ ولباسهم الغريب؁ ومعهم آلات معدنية طويلة تصدر أصواتاً مدوية؁ تردى من يصيبه الصوت قتيلًا؁ كبلوا قبيلته كلها فى سلاسل حديدية؁ إلا من استطاع الهروب فوق الأشجار العالية؁ أو فى الأدغال الموحشة المليئة بالسباع.

لا يمكنه أن ينسى يومين فى حياته.. يوم أن فرّقه عن أبيه وأمه؛ كان على الساحل سفينتان راسيتان؁ والمحيط أزرق لا نهاية له؁ جزوه على واحدة منهما والسياط تلهب ظهره؁ لا يستطيع أن ينسى نظرة أمه وقتها والدمع يملأ عينيها السوداوين؁ تحاول أن تجري له لتفتديه بحياتها؁ أعادها الطوق الحديدي - الذى قيدوا

به عنقها، وشدوه إلى شجرة ضخمة - إلى رُشدِها، منعتهَا من التحرك، وعلى السفينة وضعوه في قفص خشبي كحيوان بري يخشونه، ذات صباح أخرجوه من قفصه، أمسك به أربعة رجال أقوياء من أطرافه الأربعة، وفي لحظات قليلة وبخيطٍ ناعمٍ قوي كان الخامس يربط علامة ذكوره وما تحتهَا بعنف، كادت روحه تغادره من الألم، صلبوه دون رحمة، وبعد أيام قليلة ذبل شيء تحت طرفه الخامس، ليصبح خصيًّا.

تنقل من حرمك إلى آخر، تعرّف على عجزه عندما عاش في عالم النساء، وفي حرمك الأمراء المماليك والأتراك، الحريم ليست ككلّ الحريم؛ فبياضهنّ نقي، وأجسادهنّ لامعة، ولحومهن طرية رجراجة، كثيرًا ما تتابه حالة من حالات الهياج، التي لا يدري لها سببًا عندما تحتك به جارية أو يلامس خادمة ولو بالصدفة، وعندما يسمع تأوهات تلك السيدة السمينة ذات الصدر الكبير، وهي بين أحضان سيده، تبّأ لهذا الخيط الناعم الذي حرمه من حقه، ومنعه من أن يمارس حياته، ويصبح أبًا ذات يوم، تمنى لو لم يأكل أو يشرب، أو حتى يرتدي تلك الملابس المزركشة، والتي يمشي بها مختالاً وسط المصريين الحفاة العراة، مقابل أن يتزوج، ولو من أقبح امرأة يمكن أن تصادف بشريًّا، يضاعفها ولو مرة واحدة، وينجب طفلًا ويصبح أبًا، بعدها هو على استعداد أن يخصي نفسه بنفسه، ولو بحبل من الكتان الخشن.

أسموه نحلة؛ لأنَّ بكاءه كثير الشبه بطنين النحل، نسي اسمه الحقيقي، ولغته، وأهله، أصبح مصرياً رغم لونه وملامحه، نسي كلَّ شيء عن ماضيه، إلا نظرة عين أمه، واليد التي عبثت بمقدرات رجولته، وهي تلقي بجزءٍ جفَّ من جسده طعاماً للأسماك البحر الواسع.

أفاق على صوت السمينة البيضاء وهي تناديه، اقترب منها ووقف أمامها، ويداه معصوبتان أمامه بعد أن طأطأ رأسه، وبصوت لئِن كليونة جسدها، أمرته أن يحضر لها السيدتين والفتاة، اللاتي تستيضفن، عاد بظهره حتى ابتعد عنها بمسافة مناسبة، انطلق في طريقه لغرفتهن في الطابق العلوي، وفي صدره ضجيج كهزيم الرعد، استمرت جلفدان هانم مع نرجيلتهان وتجذب أنفاسها بهدوءٍ.

انتشرت الأميرات، بنات وزوجات «قوش» بك، ومحظياته في أركان الحرملك، كان بعضهن يثرثر، في ركن هادئٍ نسبياً، جلست ابنتان من بناته، وحولهما الجاريات يمدحن في أعمال الإبرة التي يقيمُن بها، وكأَنَّهما تتنافسان في معركة وهمية، كلُّ أميرة خلفها جواربها، تشجعها وتهلل لها. نظرت رينا نحوهما ووقفت أمامهما تشاهد ما يفعلان، فلم تجد ما يستحق كلَّ هذا الحماس، تركتهما ومرت من أمام سيدة الحرملك، نظرت نحو الأرض، عندما اقتربت من مجلسها، نفخت جلفدان هانم دخان نرجيلتها في

وجه الصغيرة بكلّ عنجهيَّة، تلك التي لم تخاطر بالنظر نحوها، هي تعلم جيّدًا أنها لن تتمكن من أن تؤذيها شخصيًّا، ولم لا وهي القادرة بوشاية صغيرة أن تقلب حياة أمّها لجحيم لا يُطاق، تجاوزتها في هدوءٍ وذهبت نحو شباك مزين بحديد الفورجية يطلّ على الحديقة.

اقتحم نحلة غرفة الضيوف دون استئذان، جلست على الأرض نفيسة وبجوارها فاطمة، وفي المقابل جلست لالا زار حول صينية صغيرة عليها طبق جبن، وبعض الخبز، وأنواع مختلفة من الخضروات الورقية، انتهين لتوهنّ من تناول الفطور، توقف نحلة يراقب إحداهنّ وهي تقف، ومؤخرتها الجميلة تعلو ثم تستقيم أمام نظره عند وقوفها، فزاد الهياج في صدره.

اندفع الدم في رأسه، لونها الخمري، عجزها الرائع، صدرها البارز، كل هذا جعله يشتهي احتضانها، ودّ لو كانا وحدهما الآن ليعانقها، وليقطع سيده رأسه بعد ذلك؛ فهو لن يبالي.

وقفن جميعًا بعد أن أخبرهنّ بصوته الغريب، أنّ سيده تنتظرهن، وعليهنّ أن يمثلن بين يديها في الحال، تقدمت نفيسة وابنتها نحو الباب، وتأخرت الثالثة خلفهما، وقفت أمامه وقد خفضت رأسها في احترام لم يعتده من نساء الحرملك، خرجت منها الكلمات متقطعة، فزادت اشتعال النيران في صدر حارس الحرملك، خاطبته وهي تخشى أن

يشي بما ستطلب، تجرأت عندما لمحتة ينظر نحوها وفي عينيه
وَجُد، عرفته بغريزتها..

- يبدو أنك رجلٌ طيبٌ، ويمكنك أن، أن، أن تساعدني...

قاطعها نحلة وهو لا يصدق أنَّهما يقفان وحدهما، لمح بطرف
عينه رفيقتهما تقفان خارج الباب، وتنظران نحوهما، فمنع نفسه
من الاقتراب منها، فأجاب على الفور:

- يمكنني عمل أي شيء في هذا القصر.

- أريد فقط أن تدبر لي مقابلة مع ابنتي، هل تعرفها؟

- نعم، تلك الفتاة التي أغضبت الهانم، أليس كذلك؟

- لم تكن تقصد وحياتك، إنَّها ما زالت صغيرة طائشة، هل
ستساعدني؟

- سأتدبر الأمر، عندما أُشير لكِ انسحبي من المكان دون أن
يشعر أحد، اتبعيني وسيكون كل شيء على ما يرام.

أومأت المرأة برأسها بالموافقة، وانطلقت لتلحق بمن
تنتظرانها على الباب، تَجَمَّدَ الرجل في مكانه، لا يُصدق نفسه
بأن هناك فرصة أن يتحقق حلمه، يبدو أنَّ اليوم يوم سعده،
زَفَرَ زَفْرَةً، وهرولاً لاحقاً بالنسوة مثبتاً عينيه على مؤخراتهن.

وقفت رينا وحدها عند الشباك، تسابق الجميع لمشاهدة فاطمة، وهي تتراقص على نقرات دُفّ تنقر عليه جارية ذات بياض آخاذاً، تعالت صيحات الإعجاب برقصها، وجسدها يتمايل في سرعة وإتقان، محاولاً اللحاق بنقرات الدُف، التي تلاعبت به يد الجارية الخبيرة.

دارت عين لالا زار في المكان تبحث عن مرشدها، وأخيراً ظهر عند الباب، خفق قلبه بشدة عندما تبسّمت له المرأة، تلفت حوله واطمئن أنّ الكَلّ مشغول مع خصر الفتاة، أشار لها بيده؛ فقامت بخفة، وتبعته دون أن يلحظ أحد.

تبعته في سرداب ضيق مظلم، والظلام الحالك منعها من رؤيته، تتبعت صوت قدميه، وفجأة اصطدمت بجسمه، لف ذراعيه حولها، ضمّها بقوه نحوه، شعر بلين نهديها يلتصقان بصدرة، انزلقت يده أسفل انحناء صدرها، انفتحت أبواب اللذة، لم تدرك ما يدور حولها، قبل أن تصرخ من هول المفاجأة كان قد أفلتها من بين ذراعيه، بعد رعشة قصيرة شعرت بها تمرّ في جسدها كلّها، أخذ يلهث بصوت مسموع، كحيوان جائع طارد فريسته لدقائق طويلة، والآن يلتقط أنفاسه بعد أن تمكن منها.

لم تفتن ما حدث، هل انتهى كلّ شيء بهذه السرعة عندما احتضنها؟ ولماذا تركها بهذه السرعة؟ وما سبب كلّ هذا اللهاث؟ هي محرومة من لمسة رجل منذ سنواتٍ طويلة، مات زوجها قبل

حوالي عشر سنوات، شعرت أنّ جاذبيتها مهذرة طوال تلك الفترة، والآن يقع حظها التعس في خصي يفشل في أن يللم لها عقد أنوثتها، ويعيده حول عنقها مرة أخرى، في قسوة بريئة منعها من متعة خاطفة، لم تع ما حولها، أما هو كان يشعر بأنّه قد حاز الدنيا كلّها في تلك اللحظات القليلة النادرة والثمينة من حياته، لم يكن يستطع طوال حياته أن يُقدم على هذه المغامرة، لو حدث لُقُطعت رأسه، أو أُلقي به في النهر مربوطاً بصخرةٍ ضعف وزنه مرات عديدة، أو قتلوه بالتنصيص؛ وقطعوه لنصفين من عند خصره، وتركوه يصرع الموت، الذي سيأتيه بعد ساعات من الألم، تمالك نفسه، وبصوت رفيع مبحوح تتم بكلمات لم تفهم منها شيئاً، اعتقدت أنّه يعتذر لها، أو يبرر لها ما حدث، لو فسرت كلماته؛ لوجدته يلعن من خصاه، ولشاركته في هذا دون تردد، سحبها من يديها فتبعته مبهوتة، وهو ما زال يلعن من فعلها به.

جلست عائشة في ركنٍ شبه مظلم، وأمامها كومة من البصل تقشرها، لم تتعرف عليها أمّها من الوهلة الأولى، في سويعات قليلة تغيّر حالها، كبرت في العمر سنوات، بهتت نظرات عينيها بعد أن كانت تلمع كعقيقتين، أصبحت زائغة لا تستقر، تبدّل حالها، وأصبحت ترتدي ملابساً خشنة تغطي جسدها الرائع، الذي سيضمّر قريباً من الحزن.

اندفعت لالا زار نحو ابنتها، وضمتها لصدرها، وارتفع صوت
بكائها، احتضنتها عائشة، والدمع ينساب من عينيها في صمت.
افترشتا الأرض بجانب كومة البصل، امتلأت عين الأمّ بأسئلة
أدركتها الشابة بذكائها، ألقت برأسها على صدر أمّها، خرجت
الإجابات معانقة أنفاسها الحارة، ودموع تكفي أن تغرق العالم
هَمًّا:

- القهر يا أمّاه، القهر يحوّلنا إلى عجائز عاقرات، لا قدرة لدينا
حتى على الانتحار.

- لا تتحدثي هكذا يا صغيرتي، لقد أصبح لابنة خالتكِ حظوة
عند الهانم؛ ستتوسط لكِ، لقد اتفقنا على هذا.

- لن يُجدي هذا يا أمي، إذا أردتِ أن تتعرّفي على أصحاب
القصر فهنا هو المكان المناسب لا الحرملك، الكلّ يتحدث عن
قسوتها وعنادها كما يتحدثون عن نهم «قوش» بك للطعام،
وشغفه بالنساء، وكرهه للمماليك وأمرائهم، ومع ذلك تسيطر تلك
العجوز القاسية على رغباته وجموحه، ورغم تجاعيد وجهها إلا
أنّها ما زالت شبيقة لمعاشرته كلّ ليلة، هكذا يقولون.

تلفتت لالازار حولها خائفة أن يكون هناك من يسمعهما،
اقتربت من ابنتها وتمتمت:

- اصمتي يا بنيتي، قد يسمعك أحد ويبلغ مولاتي بهذا...

- مولاتك!

- ولم العجب؟ أليست هي سيدة القصر والمسيطرة كما
تقولين؟

- بلى، لكنّها ليست مولاتنا، ولو عاد بي الزمن لكررتُ ما
فعلتُ.

لم تندهش لالا زار من عناد ابنتها، فهي ورثته من لبنها، إنّه
العمر الذي يغيّر كلّ ما فينا، وليس فقط الملامح، العناد والاعتداد
صفات لها، فقدتهما مع أول ليلة صارت فيه أرملة، تنهّدت وهي
تنظر في عينيّ صغيرتها فقد حان موعد رحيلها، أشار لها نحلة
بالعودة قبل أن ينكشف أمرهم، احتضنتها تمّت أن تبقى هي هنا
وتعود عائشة للحرم ملك لتنعّم برغد العيش، قبّلتها بين عينيها وهي
تعدّها بأنّها ستحاول مع مولاتها؛ أصرت الشابة بأنّها لن تعود إلا
بشروطها، اندهشت الأم كثيراً من خيال ابنتها الخصب، جذبتها يد
رفيقها برفق وبسرعة قبل أن تردّ عليها.

(16)

البحث

عبر بابٍ منخفضٍ بالقرب من كومة البصل قاد نحلة تابعته خارج المطبخ، مرًا بقبو صغير تفوح منه رائحة العفن والرطوبة، أشار نحو براميل خشبية في أحد أركانها وهمس لرفيقتة:

- هل تريدان بعض الخمر القبرصي المعتقد؟

تعجبت لالا زار من وجود خمر في قصر أحد الباكوات، الذين تعتقد أنهم لا يخطئون، ولا يرتكبون المعاصي أبدًا، ردت بعفوية:

- خمر! أستغفر الله العظيم، هل تشرب يا «نحلة»؟

- لا والله، ظننت أنك تحبب أن تجربي.

- هل يشرب البك؟!

- في الواقع لم أره مطلقاً يحتسيه في الحرملك أو خارجه، أحياناً يرسل لطلبه وهو في ديوانه عندما يأتي لزيارته بعض القناصل الأوروبيين .

عبر باباً ضيقاً منخفضاً في الجهة الأخرى من القبو، خرجا لحديقة صغيرة يكسوها العشب وفي وسطها نخلة عالية وحيدة يطلّ عليها الحرملك بشباك وحيد مزين بحديد فورجية. وصل لأذانهما صوت نغمات العود ممزوجاً بغناء فاطمة الساحر، تعرفت عليه خالتها، وأخبرت مرشدها بذلك، اطمئن أنّ النسوة ما زلنّ منشغلات في لهوهنّ.

توقفت لتشكر نحلة، هي لا تعرف أنّها من تستحق الشكر من وجهة نظره، فهي من جعلته يشعر برجولته، لا لأنّها جعلته يرتجف عندما لمسها؛ بل لأنّها جعلته يشعر بأدميته، توسمت فيه الرجولة، فطلبت منه المساعدة وهو قد أتمّ مهمته على أكمل وجه، ساعد أمّا على أن تجتمع بابنتها، ليته وجد من يفعل فعلته مع أمّه، عندما خطفوه في الغابات البعيدة.

دلف من الباب المخصص للوقوف عليه، نظر حوله فوجدهن منصات لغناء الفتاة، وقد وقف الطير على رؤوسهن، يتمايلن في تلذذ، وقد لف الشجن المكان، أشار لها، فدخلت، وجلست في الخلف، وقلبها يدق خوفاً من أن يكون أحد قد كشف أمرها.

نظرت نحو أختها، فلم تشعر بعودتها، كما لم تشعر باختفائها، دقائق وانتهت فاطمة من غنائها، ألحَّ الجميع أن تستمر، أنهت الهانم الأمر، ووعدتهنَّ بأنَّها ستغني مرة أخرى في وجود الباشا، انفضَّ الجمع، وعادت الأميرات إلى أماكنهنَّ يتحدثنَّ عن رقص وغناء تلك المصرية العجيب.

مدت جلفدان هانم يديها لفاطمة، قبلتها على جبينها، نظرت الجواري لها في حسدٍ، نالت الوافدة الجديدة شرف لمس يد الهانم، ربتت على كتفها، وهمست لها في أذنها بكلمات قليلة، وأشارت لها بالانصراف، تجمعنَّ معًا هي وأمها وخالتها، اقتربنَّ من الباب ليخرجنَّ، ويعدنَّ لحجرتهنَّ ولكنَّ صياح جارية أوقف الجميع، كان صوتها أشبه بالنواح والبكاء وهي تصيح في قلق:

- أين مولاتي رينا؟ لا أجدها هنا، لقد اختفت.

عمَّ السكون المكان، وقفت الهانم، والشرر يتطاير من عينيها، أشارت للجارية بالاقتراب، لطمتها على وجهها، وسألتها في حدة:

- ماذا تعنين أيتها البلهاء بأنَّها اختفت؟

- ليست موجودة في الحرمك يا سيدتي.

رفعت رأسها والغيظ يملأ عينيها، وأشارت لنحلة بالاقتراب، رجف قلبه، وارتعشت ركبته، هل علمت بغيابه؟ بالتأكيد عرفت

ذلك، وإلا ما نادى عليه وحده، فعلى الباب الخارجي للحرم ملك يقف شيطح، لماذا لم تطلبه للمثول أمامها هو الآخر؟ أسرع في تلبية النداء متمنياً أن يخطفه ملك الموت قبل أن يصل إليها.

نظرت نحوه وقد ازداد احمرار وجهها، وجمحت عينها من شدة الغضب، أشارت إليه بطرف سبابتها:

- أين ذهبت الصغيرة يا نحلة؟

- لا أدري يا سيدتي، لم تخرج من الحرم.

- إذاً أين هي؟

- لا أعرف، ربما غافلت شيطح وخرجت.

- لو لم تظهر الصغيرة أعدكما بعذاب غليظ، اذهب واحضره في الحال.

«لم تعرف باختفائي»، هكذا حدّث نفسه، ثم عاودته سحابة من التفكير المتشائم، فمثل هذه لا يؤمن لها جانب، علّها دبّرت مع شيطح خطف رينا والتخلص منها، وغيابه وفرّ الجو الملائم للمؤامرة، سيقف زميله أمامها، ويخبرها: بأنّه رآه يأخذ الأميرة الصغيرة ويخرج بها. وستجد العديد والعديد من الجوّاري ليشهدن على ذلك، سيقطعون رأسه عقاباً على هذا، ويحشونها بالقش ويلقونها على باب القصر، ويرمون باقي جسده في الصحراء ليكون عشاءً

فاخرًا للجوارح، الويل لك يا نحلة، سيضيع عمرك من أجل معانقة
لم تستفد منها شيئًا إلا دليلًا عمليًا على عجزك وعدم رجولتك.

وقف شيطح بعينيه الدعوشتين بجانب نحلة، كالت لهما
السباب ووعدهما بعقوبات رادعة تصل للقتل بالخازوق لو لم
تظهر ابنتها قبل الليل، إنَّها تدعوها ابنتها، والكل يعلم كم تكره
أمّ الصغيرة الروسية، التي لم يسمع لها أحد صوت حتى الآن، لم
يعد السؤال الآن أين رينا؟ بل هو أين رينا وأمَّها؟ دارت الهمهمة
بهذا السؤال في كلِّ أرجاء الحرملك مع توقعات بهروبها، بعد أن
خطفت ابنتها، وصل كلُّ هذا لسيدة الحرملك، صاحت في الجميع
بأنَّ عليهم الصمت. خيم السكون على المكان بصقت وهي في قمة
غضبها وصرخت بهنَّ:

- كيف تجرؤون على قول هذا؟! لو علم «صالح قوش» بك
بقولكنَّ؛ لتخلص منكنَّ جميعًا، هل جننتنَّ؟ ألا تعلمنَّ عمَّن تتحدثنَّ؟
إنَّها زوجة البك، وكفى بهذا فخرا، وهي ضرتي وكفى بهذا عزة.

بصقت مرة أخرى، وقد زاد غضبها، وأشارت للخصيين وهي
ترغي وتزبد:

- أما زلتما هنا؟ هيا اذهبا ولا ترياني وجهيكما إلا ورينا معكما.
انطلقا لبحثا عن الصغيرة بعد أن اطمئنَّ نحلة قليلاً إلى أنَّ
أحدًا لم يلحظ غيابه، أو يعلم بفعلته، عليه أن يجتهد ويجد الأميرة

الضائعة، ربما يكافئه الباشا، وينعم عليه بحريته، ماذا سيفعل بحريته؟ وهل لأشباه الرجال حرية؟ لا يريدوها ولا يتمناها، كل ما يرجوه هو أن يرضى عنه سيده، ويمنحه بعضاً من الثقة.

كان الحرملك هادئاً على غير العادة، انزوت الأميرات في أماكنهن صامتات، ووقفت الجواري كتماثيل شمعية خلفهن، جلست لالا زار وأختها في ركن بجانب الباب الخارجي للحرملك، همست نفيسة في أذن أختها:

- هل رأيتها؟

هزت رأسها بالإيجاب، وعادت أختها للسؤال:

- طمئيني، هل هي بخير؟

سالت الدموع من عينيها، فهمت أختها، ربتت على ظهرها، وانسكب الدمع من عينيها هي الأخرى، متذكرة وحيدها، والمخاطر التي يواجهها في المجهول، الذي لا تعلم عنه شيئاً، أجهش بالبكاء، اعتقدت جلفدان أنهما يبكيان قلقاً على ابنة زوجها.

هبت جميع النسوة واقفات، عندما شرف قوش الحرملك، كان القلق يعتصر قلبه، أعداؤه كثيرون، لم يتخيل مطلقاً أن يصل الخطر لعقر داره، هل تمكن الألفي الملعون من خطف ابنته ليساومه عليها؟ ماذا هو بفاعل لو كان الأمر هكذا؟ هل يغدر برفيقه الألباني

من أجل صغيرته؟ أم عليه أن يلتزم بالخدعة كعادته؟ اندفعت
«جلفدان» نحو زوجها، سألهما والقلق يقطر من حروفه:

- كيف حدث هذا؟

- لا أحد يعلم حتى الآن، شيطح كان يقف خارج الباب الخارجي
للحرم ملك، ونحلة تولى أمر الباب الداخلي.

- وأين هما الآن؟

- ذهبا لبحثنا عن الصغيرة.

- وأين أمها؟

- ذهبت لزيارة السيدة زينب.

- نعم، لقد أخبرتني بهذا، ولكنني نسيت، لقد أغلقت كل أبواب
القاهرة، وهناك فرقة من الأرناؤود تبحث عن الصغيرة الآن، ولن
يناموا حتى يعودوا بها.

زادت الكلمات من انزعاج الموجودين، عملية البحث قد تطول،
لا أحد يعلم ماذا سيحدث في عملية بحث كهذه مثل فاطمة
وأمها، سينتشر الجنود في كل مكان، وسينهبون البيوت والمحلات
والمخازن بحجة البحث عن شيء لا يفصحون عنه، إذا قاوم أحد،
أو أظهر التذمر؛ فقد يصل الأمر للسجن، وربما للقتل أو الاغتصاب،

كلّ هذا من أجل حصان عزيز على أحد الأمراء فرّ هاربًا، أو جارية
يئست من حياتها لسوء معاملة أسيادها فقررت في لحظة جنون أن
تهرب، ترى ماذا سيحدث هذه المرّة وهي ابنة قائد الأرناؤود؟

تتبع عيون الحرّيم سيد الحرملك وهو يتحرك في أنحاء
المكان على غير هدًى، توعّد بعذاب أليم لمن قام بخطف ابنته
وأته سيمحو عائلة هذا المجرم من على وجه البسيطة إذا ما لحق
بها أيّ أدًى، عقد يده خلف ظهره، وتعلقت عيناه بالأرض، ثم اندفع
خارجًا من الحرملك، صوته المرتفع كان يتردد داخل حرملكه، وهو
يكلم أحد كبار ضباطه:

- اعلنوا وبسرعة عن جائزة كبيرة لمن يدل على صغيرتي، هيا
بسرعة.

عاد كأسد جريح لعرينه، نكّس رأسه، ماذا لو علم محمد علي
باشا بما حدث في بيته؟ ستهتّز ثقته به بكلّ تأكيد، لا، عليه بأن
يتكتم على الأمر، خرج مسرعًا وتحدث مع ضباط فرقه، ملغيًا فكرة
الإعلان عن تلك الجائزة، ورجع والحيرة تكاد أن تفتك به، اقتربت
منه جلفدان هانم دون أيّ كلام، وبمجرد إشارة أوقفها، فعادت
لتجلس مكانها، وهي لا تعلم كيف ستبرر له ما حدث؟ سيتهمها
بأنها من دبّرت ذلك، تعلم جيدًا أنّه لا يعيش دون مؤامرات،
وبالتأكيد سيتهمها بالتآمر.

قطع الضجيج خارج الحرمك الصمت بداخله، خرج الباشا بسرعة، وعاد وهو يحتضن ابنته، ويجري مهرولاً، تبعته عائشة بعدة لحظات، تبحث بعينيها عن أقاربها، عمّ الفرح المكان، بينما الدهشة قد أوقفت أمها وخالتها وبنات خالتها، وتملكهنّ الفرح بعودة رابتهنّ.

حاول قوش بك أن يفهم ما حدث من ابنته، لم تنطق ببنات شفة، اتسخت ملابسها، وتعفر وجهها وشعرها، كأنّها لم تعرف للحمام طريقاً منذ أن ولدت، هزها أبوها ولم تنتبه لما حولها، لقد تبعت لالا زار ظناً أنّها ستحضر لها كوباً من الشرابات كما وعدتها من قبل، وفي السرداب المظلم تعرفت على كلّ أنواع العفاريات والجان، الذين تسمع عنهم في الحواديت، رأتهم بأّم عينيها، رأت وجوههم الزرقاء، وعيونهم الحمراء، وأظافرهم الطويلة، وأرجل ماعز سوداء، وشعرهم الأشعث الطويل، والذي ينتهي برؤوس ثعابين مخيفة، كادوا أن يخطفوها، لولا أنّها جرت، حتى وقعت أمام كوم البصل في المطبخ.

سأل البك عائشة عن ملابس عثورها على ابنته، كان أشبه باستجواب قاس، رباطة جأشها ساعدتها على أن تُقنعه بأن لا يد لها فيما حدث، وأنّها وجدتها، وتعرفت عليها وأعادتها، اطمئن أنّ كلّ شيء بخير، فسأل سؤالاً أخيراً:

- كيف أكافئك؟

- العفو يا جناب البك، لم أفعل شيئاً يستحق المكافأة.

- هل أنتِ جارية هنا؟

- لا.

- لو كنتِ لمنحك حريتك، من أنتِ إذًا؟

- من المفروض أنني ضيفة عندكم مع أُمي وخالتي وبنات خالتي.

سرح الباشا بخياله لثوانٍ ليتذكر شيئاً ما، لم يطل الأمر، لا بد أنهم أقارب الشاب المصري، الذي ذهب ليقتل الألفي اللعين، نظر نحوها وهو في حيرة من أمره، إن كانت هي من أقاربه، فلماذا ترتدي تلك الملابس الحقيرة؟ وما السبب بأن تكون في المطبخ؟ فهمت ما يدور في خلدته دون أن يفصح عنه، أسرع لتجيب عن تساؤلاته:

- غضبت سيدة القصر عليّ دون أيّ خطأ مني.

تحركت جلفدان للاقتراب منهما، أشار لها البك أن تبقى مكانها، عادت عاصفة التساؤلات تعصف في رأسه، وكعادتها أجابت قبل أن يسأل:

- كان اليوم الذي حضرنا فيه إلى هنا يومًا عصيبًا علينا، عرضنا رجالك في سوق النخاسة، ثم قضينا ليلة مزعجة في حجرة ضيقة

مليئة بالجان والعفاريت، وفي الصباح غضبت مني جلفدان هانم
لأنني كنت أريد أن أشكو لها ما حدث لنا، لم تستمع لي وعاقبتني
بأن أعمل في المطبخ كخادمة، ولعله خير يا باشا، ربما كل هذا
حدث حتى أجد ابنتكم وأعيدها لأحضانكم.

أشار لكبيرة الجواري أن تأخذها للحمام هي وابنته، تبسم
لعائشة مطمئناً، لكنّ نظراته نحو جلفدان كانت تحمل كل معاني
العتاب واللوم، لم تقلق الهانم كثيراً من هذا، هي قادرة على تخطي
محنة صغيرة مثل هذه، كما تخطت الكثير من قبل، أدركت وقتها
أنّ هذه الملعونة، وأقاربها يمثلون خطراً حقيقياً عليها الآن، عليها أن
تتخلص منهم بسرعة ودون جلبلة أو ضوضاء.

(17)

المارستان

درجات متقاربة تصعد تارة وتهبط تارة أخرى، لتعود لل صعود متعرجة بشكل عشوائي، تقودك في نهايتها لميدان صغير، شوارع ضيقة متعرجة تصبّ فيه، وكأنّها قنوات صغيرة شقتها الأمطار لينتهي مصير مياهها في بركة كبيرة.

مجال صغيرة متلاصقة، أمام أحدها منصات خشبية منخفضة، فوقها تلال صغيرة من التوابل، وانتشر عبقها في المكان، فاختلطت وتمازجت روائحها وألوانها في روعة عجيبة، بجواره تكدست كثبان صغيرة من الزبيب بلونه العقيقي في تنافر مربكٍ مع جوز الهند المبشور، متقاطعين مع أكوام صغيرة من المشمشية والقراصيا وعقود التين المُجفف، انتصبت هضبتان صغيرتان من الكركدية والتمر هندي على الأطراف كحارسين يحميان المكان، في حانوت مجاور للعطار

تكوم رجل تحت أثواب قطنية في كسلٍ مفرطٍ، وقد تشاركت على الحائط أثواب قماش في تناغم بديع .

ازدحم الميدان بالباعة والزبائن رغم الحر الشديد ومع كل هذا الزحام لا أحد يبيع أو يشتري تقريبًا، اكتفوا بالمشاهدة وتقليب البضائع، والسؤال عن ثمنها دون شراء، أصوات متداخلة لا تميز منها شيئًا، ثثرات النساء، صراخ الأطفال، سباب الشباب، شكاوى الرجال من الأسعار، التي تضاعفت، وعجزهم عن إطعام أسرهم، نفخات من صدور مغتاظة تخرج؛ تزيد الجو حرارة.

تأفّف، ضيقٌ، غضبٌ وعجزٌ، مزيج من المشاعر لا تستطيع أن تميزه، اختلطَ مع أشعة الشمس، وعرق الأجساد، ورائحة تزكم الأنوف من أكوام قمامة مكدسة في أركان المكان، بجانب أحد الأكوام تحلّق الكثير من الرجال والصبيان، وقف رجل قصير وسط الحلقة، وفي يديه ديك أبيض يتزين ذيله بريشات قليلة سوداء وعُرف أحمر طويل كتاج فوق رأسه، وضعه على الأرض، نثر بعض حبات القمح أمامه ونبش الأرض بمخالبه القوية بحثًا عن طعامه، بعد أن انتهى من وجبته، واستعراض قوته وتقدّم مالكة وحمله بين يديه .

رفع رجل آخر ديكًا أحمر ريشه في لون الكهرمان له تُرعلهُ كثيفة، دار به حول نفسه، ووضعه على الأرض، وبنفس الطريقة

نثر له بعض حبات الذرة، دار ذو الرقبة الطويلة حول نفسه في تيه، فنقر الأرض بمنقاره القوي، التقط الحَب برشاقة وقوة، مدَّ رقبتَه الطويلة في غرورٍ، رفرِف بجناحيه؛ فأثار التراب، ومعه تعالَى صياح الرجال والصبية، توجَّه بعضهم لكهل يفتersh الأرض، أمامه صندوقان خشبيان، غُطي أحدهما بقطعة قماش بيضاء والأخرى بقطعة حمراء، نزع الغطاء الأبيض، وألقى فيه الرجال رهاناتهم على صاحب الريش الأبيض الطويل، أعاد الغطاء الأبيض فوق الصندوق وسحب الأحمر من فوق الصندوق الآخر، تسارع الكثير من الرجال، وألقوا رهاناتهم بداخله على الديك الأحمر.

تواجه الديكان، وبدأ صراعًا داميًا ينتهي بقتل أحدهما الآخر، يحمس كلُّ مالك مقاتله للمعركة، ويدفعه نحو منافسه غير آبه بعينه، التي فقئت، أو بدمٍ يسيل منه، ما يهتمهم هو أن يشارك أحد المالكين بجزء من صندوق الرهان، من خلف الحلقة مرَّ «سالم المرجاوي»، لفت انتباهه صياح الرجال وحماسهم، رفع عنقه محاولاً أن يرى المتصارعين ولم يتمكن، غادر مسرعًا، فلا وقت يضيعه بعد طول غياب عن عائلته، لعلمهم في انتظاره الآن، ليشاركهم الغذاء الساخن، تمنى أن تكون زوجته قد أعدت له محشي الباذنجان والفلفل، الذي يحبّه.

كأنَّ البيت مهجورًا منذ فترة، وهذا واضحٌ من التراب المكسد على الحيطان والفرش البسيط، توجه مسرعًا نحو منزل جاره مقبل، وقف على الباب وصفق بيديه، ناداه؛ وخرج له متظاهرًا بأنه متفاجئًا من زيارته، ورَّحَّب به كثيرًا، محاولاً إظهار كرمه، سأله رب العائلة العائد من عمله في أحد مصانع السكر بالصعيد عن عائلته، فقد كان آخر عهده بهم أنهم كانوا برفقة جاره وعائلته متوجهين نحو مولد السيد البدوي، رفع الجار كتفيه، وقلب شفته السفلى كنوع من الإجابة على سؤاله، لم يفهم سالم ما المقصود من هذه الإجابة.

أعاد السؤال مرة أخرى، ولم يكد مقبل يفتح فمه ليجيبه، حتى أخرسته المفاجأة، عزَّ الدين وجنوده واقفون أمام بيته، دفع جاره جانبًا وأسرع مرحبًا بضيفه الجديد، اقترب من حصانه، لكن الفارس ركله من فوق حصانه بقوة في صدره، وقع على أثرها على الأرض أمام جاره، ترجَّل بعض الجنود عن أفراسهم، كبلوا الممدد على الأرض، ونبشوا بجانب بيته حفرة صغيرة، فظهر كيس قماشي بين يدي أحدهم، سلمه لعزَّ الذي أخذ يرفعه ويلقفه أمام صدره، وهو يبتسم في مكر، والسؤال ينساب من فمه في برود:

- لماذا سرقت هذا الذهب من قصر قوش بك؟

- لم أسرق شيئًا، أقسم لك يا أميري، لم أسرق شيئًا.

- سرقت يا عزيزي بمساعدة تلك النسوة اللواتي أودعنهنّ
هناك كضيفات مكرّيات.

- صدّقني لم أفعل، أقسم بالله العظيم أنّني لم أسرق.

- « قالوا احلف؛ قال جاءك الفرّج»، هيا احضروه.

رفعه الرجال من على الأرض، اندفع سالم ووقف تحت
قدم الأرنأؤودي، أمسكها بيده وأخذ يقبلها والدمع ينهمر من
عينيه:

- أرجوك أن تساعدني جنابك.

- من هذا؟ هل هو؟

نظر نحو المكبل الواقف في ذلة، هزّ رأسه في وضاعة دون
أن يرفع عينيه.

- أنت والد أحمد؟

- نعم يا سيدي، أنا أبوه وفاطمة ابنتي، ونفيسة زوجتي.

- احضروه مع مقبل، هناك أكياس في المركب تكفي
الجميع، والأحجار الثقيلة متوفرة، والنيل لن يرفض إغراقهما
معًا.

جثى مقبل على ركبتيه مستعطفًا، أصبح مصيره واضحًا أمامه الآن، سيضعونه في كيس قماشي متين بعد أن يكبلوا يديه، وقدميه، ويرافقه في الكيس أحجار ثقيلة، كفيلة بأن يستقرّ الكيس في قاع النيل في ثوانٍ، لم تشفع له الخدمات التي قدمها، ولا دموعه التي تغمر وجهه، لن يسعد بقصره الجديد، الذي كان على وشك الانتقال إليه، لن يفرح بتجارته، التي أعدّ لها محلّه الجديد، كلّ شيء صار هباءً، حقًا إنّ آخر خدمة الغرّ علقه، ما ذنب هذا الكهل الذي سيشاركه مصيره المحتوم؟! رفع وجهه ودموع الندم تغرقه، خرجت الكلمات منه كتؤبة يعلنها، أو كحسنة يريد أن يكسبها في آخر حياته، لعلها تشفع له يوم حسابه، فأجابه:

- لا ذنب لهذا المسكين، إنّّه مجرد مجنون، نعم، هو مجنون، فقد عقله بعد أن فقد عائلته.

ضحك عزّ في مجون، وهو يسمع هذه الكلمات، هز رأسه بالموافقة ساخرًا:

- مجنون! فليكن هذا، للمجانين أمثاله مكان يليق بهم، خذوا هذا المجنون للمارستان، وهذا اللص حيث اتفقنا.

وكز حصانه، واستدار منصرفًا، ومن خلفه بعض جنوده، قاد الآخرون الجارين كل منهما إلى نهايته، دموع مقبل لم تتوقف،

وصياح سالم متسائلاً عن عائلته لم ينته، كلّ ذلك وأهل الحارة
لا يجروون على أن يطلوا من نوافذهم، حتى لا يشاركوا أحداً
منهما في مصيره.

(18)

فك الحصار

على أريكته في صدر ديوانه جلس يدخن غليونه، وقد عبق المكان برائحة التبغ اللاذقي، تخلل الدخان الخارج من أنفه شعر شاربه الكثيف، مد شفته العليا للأمام، ونظر للدخان وهو يتصاعد من بين شعيرات شاربه، تبدد الدخان، وعاد يسحب نَفَسًا أعمق، تجسد الدخان على شكل امرأة مكتنزة، مر طيف جلفدان في ذاكرته، تلك المرأة تمتلك كل قلبه، ولكنها لا تتورع عن إبعاد أي امرأة عنه، وكأنها تحاصره وتحصره في قلعتها، حيث لا باب ينفذ منه، أو شباك يجدد هواء حياته.

ورغم هذا الحصار، إلا إنه تمكن أكثر من مرة من كسره، والخلاص منه، ولو لساعات قليلة، لكنها كانت كافية أن يضيف لنسائه واحدة، تقبلها سيدة الحرملك على مضضٍ،

وتشدد من حصارها، عليها تتمكن من الاستئثار به ومنعه من مغامراته الهوجاء.

يحلم بأن تلد له زوجة من زوجاته ذكراً، ولد يحمل الراية من بعده، يقف بجانب الوالي، أو أحد خلفائه، ويكون ساعده الأيمن، كما هو حاله مع محمد علي باشا، ولكن دائماً يبقى ما يتمناه حلماً، ومع كل ولادة جديدة تزف له القابلة قدوم بنت مثل القمر، لا يضاهاها أحد في جمالها، إلا أمها.

سحب النفس الأخير من غليونه، وقبل أن يخرج الدخان من صدره، تقدم خادمه وأخذ الغليون من يده، وأسرع في إعطاء أوامره لعبد يقف بالقرب من باب الديوان أن ينطلق كالريح لينظف الغليون، ويحضره بسرعة ليجهزه هو بنفسه لسيدة ومولاه.

خرج العبد، وفي يده الغليون بقصبتة الطويلة، ليدلف من بعده أحد الحراس، يخبره أن هناك ضابطاً يطلب مقابله، نظر الخادم في عين سيده، وعلى الفور أعطى الإذن للحراس لدخول القادِم، وما هي إلا لحظات، وكان عز الدين يقف أمام قوش بك، وبين يديه صندوق خشبي من الأبانوس الأسود، مُطعم بالصدف، انحنى قدر ما يمكنه، وقبّل الأرض بين يديه، ورفع الصندوق أمام سيده.

تقدم الخادم بسرعة وفتح الصندوق، نظر صالح قوش عليه وغمغم بصوت متقطع:

- هذه هي المجوهرات التي سُرقت من الحرملك؟

ودون أن يرفع عز الدين عينيه أو يخفض يديه، قال في ثباتٍ:

- هي يا سيدي.

- أحسنت يا عز الدين، قبضت على اللص بسرعة، كنت عند حسن ظني بك.

أسعدت كلمات الأطراء عز الدين، مما شجعه على أن يقترب ويقبل طرف كُم سيده، الذي ربت على كتفه، وهو يأمره بالوقوف، وقف نافحًا صدره، ويده اليسرى مضمومة إلى جانبه، واليمنى تحمل الصندوق، تقدّم الخادم، وأخذ الصندوق من يده، وخرج دون كلام.

أشار البك لضابطه بالجلوس؛ فجلس غير بعيد عنه، وعيناه معلقتان بعين قائده، الذي سأله في فرحٍ:

- هل عرفت كيف دخل هذا الأفاق إلى الحرملك؟

- في الواقع هو لم يكشف عورة حرملك حضرتكم، لكن

المسروقات خرجت له بمساعدة ضيفتين تقيمان في ضيافة سيادتكم، واحدة منهن جارة قديمة له، وهي من تمكنت من مغافلة الحَزنة، وحصلت على المجوهرات، والثانية أوصلتها له، كل هذا تم أثناء ما كانت الثالثة صغيرة ابنة واحدة منهن تغني وترقص في الحرملك.

تلك الصغيرة، التي أثارت شهوات الباشا عندما وقعت عليها عينه، تمنى لو كانت جارية من جواريه؛ ليقضي وطره، سأل في لهفة:

- وهل هي مشتركة أيضًا في هذه المكيدة؟

- لا يا سيدي، لكن يا جناب البك هناك شابة أخرى معهن يمكن أن تكون خطيرة، ولا أستبعد أنها لها يد في اختفاء نجلتكم الكريمة، وربما كان هذا جزءًا آخر من الخطة، يخطفونها ويساومنا عليها، أو حتى ليضمنوا سلامتهن حتى يخرجوا من البلاد.

انتفض البك في جلسته، عندما تذكر حادثة اختفاء صغيرته رينا، وحاول ربط الخيوط ببعضها، كيف اختفت؟ ومتى؟ وكيف عادت؟ ومن أعادها؟ حك لحيته بيده، وهو ينظر بعمق في عين ضابطه:

- هل أنت متأكد من هذا يا عز؟

- هذا هو أغلب الظن يا سيدي، وأرى أنه من الأفضل أن نتخلص منهن جميعًا.

اطرق البك يفكر في هذا، وسبابته تتشارك مع إبهامه في شد شفته السفلى برفق، التخلص من العجوزتين سهل، والالتهام جاهز، والعقاب معروف، دخل الخادم يؤكد أن ما كان في الصندوق هو المسروقات بعينها، ولم ينقص منها شيء، وعلى الفور أطلق صاحب الديوان أوامره للخادم بأن يقبض طواشي الحرملك على السيدتين، وتسلما إلى القوة في الخارج، وينتظروا الأوامر التي ستأتي مع عز الدين، خرج الخادم مسرعًا وعاد ليشتعل لسيدة الغليون، ويتأمل الدخان المتسلل من بين شعيرات شاربه.

نظر نحو عز في مودة، وابتسم وهو يلوك الكلمات، ويمزجها بالدخان الخارج من فمه:

- من الظلم أن نأخذ الصغيرتين بإثم لم ترتكبا.

هز الضابط الجالس بجواره موافقًا، أكمل البك حديثه:

- ومن الخطر أن نبقي التي تشك فيها، أليس كذلك؟

على الفور رد عز بالإيجاب على سؤال قائده، أكمل القائد
كلامه بعد أن فرغ فمه من الدخان:

- ماذا لو فرقنا بينهما؟

- لم أفهم مقصدك سيدي.

- قل لي، هل ترك السارق شيئاً يُورث؟

- نعم، بيت جديد، صغير إلى حد ما، وله حديقة متواضعة،
ووكالة في خان الخليبي عامرة بأنواع البخور والعطور.

ضحك صاحب الديوان ضحكة عالية، وعاد للكلام مرة أخرى:

- وعجوزتان ستلقيان حتفهما عن قريب، وفتاتان على قدر
كبير من الجمال.

صمت لبرهة وهو يفتل شاربه الكثيف وأكمل حديثه:

- أما البيت والوكالة فهما لخزانة الباشا، وتلك الفتاة، التي
تشك فيها مكافأة لك، أنت حر التصرف فيها، هي ملكك من
الآن.

- والأخرى؟

- لا شأنك لك بها.

فهم عز الدين مقصد قائده، ابتسم ونظر إلى الخادم،
الذي لم يتحرك، حتى أشار له سيده بطرف خنصره، انطلق
ليضم عائشة للمنتظرات مع القوة في الخارج، وقف عز طالبًا
الانصراف، فسمح له، اتكأ صالح قوش على أريكته، وذهب
في نوبة ضحك عالية، وحلم الولد يرواده بشدة، لعله يُرزق
به من تلك المصرية الباقية في الحرملك، واندفع عز خارجًا
منتظرًا أحد الأغوات ليعطيه مكافأته من سيدة الحرملك على
صنعتة التي دبرها وأدارها بنفسه.

(19)

زيت السمسم

ررفت الأعلام في ثقة وتيه فوق القصر الخشبي، لو تعلم مدى فشل صاحب القصر ما حركت ساكنًا، ولبقيت ساكنة دون حراك، في بهو كبير زُين سقفه بثريات ذهبية لامعة، وفُرشت أرضه بسجاد حريري بألوان زاهية بدرجات مختلفة ما بين الأحمر والأزرق؛ جلس «الألفي» بك على أريكة دقيقة الصنع، وحوله بعض من رجاله، عليهم أن يسرعوا في اقتحام دمنهور، لكن كيف لهم ذلك وقد تحصن أهلها خلف سورها الجديد؟! نصبوا المدافع على أبراجه، وزاد الأمر صعوبة مع الخندق الذي يحيط بالمدينة؛ وهي في مكانها المرتفع، تحير رجال «الألفي» مما يحدث، جلسوا مع قائدهم يتناقشون، هم يعلمون جيدًا؛ أنّ السيد «عمر النقيب» يمدّهم بالبارود، والذخيرة، والمؤن، والرجال،

ويثبتهم بكلامه الحماسي، يعشمهم بالجنة إذا قُتلوا، وبالكرامة، والعزة ومستقبل أفضل لو كان النصر حليفهم. في مكان بالقرب من القصر وقف «أحمد» أمام وعاء نحاسي كبير، بناء على طلب من صاحب القصر عليه أن يعدّ العشاء له، أرز متبل، ولحم غنم، وطواجن خضار بمذاق حار، هذه ليست المرة الأولى التي يعدّ فيها طعام العشاء للبك وقادة جيشه، وفي كلّ مرة لا يعرف ولا يتذكر إن كان قد أضاف السم أم وضع زيت الزيتون الذي يحبه سيده، في اللحظات، التي يريد أن ينفذ فيها المهمة الموكلة إليه؛ تتسارع دقات قلبه؛ يعلو الطنين في أذنه، وتزوغ عيناه، ويجف حلقه، ينسى ما قدم من أجله، حتى أنّه لا يستطيع أن يتذكر إن كان قد احتفظ بالزجاجة التي أعطاهها له «مقبل» أم تخلص منها قبل أن ينضم لتجريدة كبير المماليك.

تطارده الكوابيس في الليل، دائماً ما يحلم؛ بأنّ رجال «الألفي» يحيطون به من كلّ جانب، ويقيدونه في نخلة، ويشعلون ناراً تحته لتلتهمه ببطء من قدميه، وحتى منبت شعره، يشعر بالنار تُذيب جلده ولحمه، يستيقظ مذعوراً، كلّ ليلة يحلم الحلم نفسه، أصبح يخاف من النوم، ومن الأكل، ومن الهواء الذي يتنفسه، يطارده القلق ويتملكه التوتر.

ما يهون عليه الأمر أنّ سيده أشاد بطعامه، وأنّه ينتظر
أن يحضر قنصل انجلترا قريبًا، وعليه أن يعدّ العدة لهذا
اليوم.

أحاط اليأس برجال «الألفي»، رفض السيد «عمر
النقيب» وآخرون من زعماء الأزهر أن يقفوا بجوارهم من
قبل، طلب زعيمهم منهم التوسط بينه وبين الباشا، أبوا
ذلك بجرأة تصل حدّ التبجح، خذلوه؛ لم يكتفوا بذلك،
بل قدّموا الدعم لغريمه بكلّ الطرق، بالرغم من أنّه
يفرض الكثير من الضرائب، ويجمع أكياس المال والعلف
والمحاصيل من كلّ بلدة يمرّ بها رجاله، يبتدع قروضًا من
الغلال والحبوب، يحضّل الجمارك على البضائع مرّات
عديدة، وشيوخ الأزهر لا يعترضون مطلقًا، بل على العكس
يؤيدونه، اشتد النقاش بين الرجال، كلّ هذا والبك صامت،
تنحى «محمد بك الألفي» أخيرًا ليصمت الجميع..

- هل تعلمون ماذا قال الثعلب الألباني عن المصريين؟

تجول بعينيه بينهم؛ منتظرًا أن يجيبه أحدهم، لم يرّد
أحد على سؤاله، أصه أمرهم، هزّ رأسه متعجبًا من جهل
أتباعه، وعدم متابعتهم للأحداث، وكأنّها لا تهمهم أو
تخصهم، اعتدل في جلسته وهو يجيب عن سؤاله:

- المصريون كالسمسم، لابد من الضغط عليهم، وعصرهم
لتحصل على الزيت.

تبسم أحد أتباعه والاندھاش ينضح من نبرة صوته:

- هل قال هذا؟!!

- نعم.

- لقد أصاب كبد الحقيقة، لكن كيف عرف طبعهم وهو
لم يكمل هنا إلا سنوات قليلة؟

- لا لم يصب إلا كبد زيفه، كنت أعتقد نفس اعتقاده
هذا أيام رعونتي، كبلتهم بالحديد، أذقتهم شتى أنواع
العذاب والظلم، والنتيجة كما ترون الآن، لا أحد يمدّ لنا
يد العون، يتعاملون معنا وكأننا مرض عضال برأوا منه ولا
يريدون أن يعاودهم مرّة أخرى.

- كيف يجب أن نعامل هؤلاء؟ إنهم جنس فلاحين
لئام أنجاس؟ وهم لا يُجدي معهم إلا القسوة فلو شعبوا
لافترسونا.

- هذا خطأ جسيم، لو كان عندك بقرة؛ لا بد أن تطعمها
وتغذيها وتريحها حتى تتمكن من حلبها وتعطيك إنتاجًا
وفيرًا، لو كتب الله لي حكم البلاد والله لأملأن ربوعها عدلاً.

- أدعو الله أن يتحقق هذا قريبًا.

- سيحدث، كما سخر الله لنا الإنجليز لطرد الفرنسيين،
سخرهم لمساعدتنا الآن لنعتلي عرش مصر.

تدخل أمير آخر في الحديث:

- لقد كنت على وشك أن تعتلي العرش لولا تلك
الخلافات اللعينة التي وقعت بين الباب العالي والإنجليز،
هناك سؤال يحيرني يا مولاي.

- ما هو؟

- لماذا يساعدنا الإنجليز؟

- نؤمن لهم طرق تجارتهم الآتية من الهند فقط، كما أنّهم
أصحاب دين سماوي مثلنا، ليسوا بكفرة مثل الفرنسيين،
ينادون بشعارات كاذبة جوفاء لا معنى لها.

- حرية وإخاء وعدالة؛ ليست بجوفاء يا مولاي.

احمَرَّ وجه «الألفي» غاضبًا، كيف لأمير مهما كانت قوته
أن يردّ عليه ويعارضه هكذا، وهو أحد تلاميذه، لو استمروا
هكذا لانفلت الزمام من يده، تذكر كيف استضعفه المماليك
عندما قرر الاعتزال، ردّ بحدة ليئد الفتنة في مهدها:

- عندما ترددها فقط ولا تطبقها تصبح جوفاء، لا قيمة لها، علينا أن نتحد الآن، نحن لا نحارب المصريين، لكننا نحارب غريباً أتى يستأثر بخيراتهما، ويلفظنا كخبث أصاب البلاد، نحن من حكمنا تلك البلاد بطولها وعرضها لما يقارب من ستة قرون، ليخرج علينا رجل بلحية قميئة ويطردنا من إرثنا الذي ورثناه كابر عن كابر، والله لن يحدث هذا مادمت على قيد الحياة.

قام أمير آخر وتوجه لمعارض «الألفي»، كان الغضب قد حاصره هو الآخر فصاح في وجهه:

- اسمع يا أمير طبلخاناه⁽⁹⁾ أنت، من قبل اعترضتم، وشققتم عصا الطاعة، قل لي ماذا كانت النتيجة؟

لم ينطق المعارض، فاستكمل الأمير كلامه بعد أن أمسك بمقبض سيفه:

- سأخبرك أنا، أغرتكم أوسمة ونياشين العثمانيين وكلامهم المعسول، وهم كما قال لكم كبيرنا هذا من قبل: إنهم يبغضوننا وينتظرون الفرصة ليتخلصوا منا ليخلو لهم خير هذا الإقليم، ويصبح لهم وحدهم، هل نسيتم ما

9 - أمير تحت إمرته غالباً أربعين فارس. أمير من الطبقة الثانية. منهم يكون أرباب الوظائف وكبار الولاة.

فعلناهم بهم؟ منعنا عنهم الخزانة، ولم نمثل لأوامرهم، إن كنتم قد نسيتم؛ فهم لم ينسوا، فانتبهوا لكلّ حرف يقوله رئيسنا، والزموا صفه، ولا تكثروا من الجدل.

وقف أمير آخر وقال بصوت به نبرة سخرية:

- تتذكرون جيدًا عندما حذر عظيمنا من العثمانيين، وأثبتت الأيام بعد نظره، اغتر سفهاؤنا بكلامهم الخادع، وذهبوا كالبهائم لسفينة الوزير العثماني، فتكوا بهم، ولولا تدخل الإنجليز لقضى الأتراك عليهم جميعًا، ولولا حكمة ودهاء أميرنا هذا ما خرجنا بثرواتنا، ونسائنا بعد أن أقنع محمود أفندي كاتب الوزير بأن يجمع له من الصعيد أموالاً ضخمة مات أصحابها، هل تتذكرون كيف خرجنا؟ خرجنا معززين يتبعنا الطبل والزممر، قُتل من قُتل في سفينة الوزير بعد ذلك، ولا تغتروا بنصركم في النجيلة، الآن هناك ذئب بعقل ثعلب، وفروة حمل كلّ يوم يزداد قوة، وهو ينافسنا فإياكم والفرقة وكثرة السؤال وإلا ضعنا كما ضاع الذين لم يستمعوا لنصيحته.

لم يكملوا نقاشهم، فالسماط جاهز الآن، ووقت الطعام لا يجوز الكلام، ورائحته الشهية كفيّلة بإيقاف أيّ جدال أو نقاش مهما كانت أهميته.

تجمع الرجال حول المائدة، سال لعابهم من رائحة الأَصناف الشهية، رفض أميرهم أن يمدّ أحد يده وطلب مثول الطباخ بين يديه، ثوانٍ قليلة وكان «أحمد» يقف أمامه، والخوف يكاد يكتم أنفاسه، نظر له نظرات كادت أن تخرق لحمه لتذيب عظامه، لا بد أنّه اكتشف أمر السم الذي لا يعلم إن كان يدسه أو لا، ربما وشى به «مقبل» الوغد مقابل بعض الذهب، فمثل هذا اللئيم لا أمان له، لم تطل نظرات «الألفي» له وبكلّ حدّة سأله:

- كم مرة أخبرتك أنني لا أحبّ هذا القرع في طعامي.

ارتاح «أحمد» قليلاً، التقط أنفاسه، التي كادت أن تنحشر في زوره منذ قليل، وبسرعة وضع طواجن من الخضار أمامه، وهو يبتسم ويهمس في أدب:

- لقد أعددت البعض لحضرتكم دون قرع، فلقد أوصاني أحد الأمراء هنا بأنّه وباقي الأمراء يحبّونه، لذلك جهزت ما يوافق طلبكم وطلبهم.

- أحسنت صنعًا.

مدّ يده بعد أن سمي بالله، ومن بعده اندفع الرجال في حماس، عاد «أحمد» أدراجه، وقد نال القلق والخوف منه ما نال، لم تعد ساقاه قادرة على حمله، ارتمى على

فرشته وهو يلهث، شدّ غطاءه على وجهه محاولاً النوم، لكنه دائم العناد معه، وعندما يصل يأتي بصحبة الكوابيس الحارقة، تبا للألفي وللباشا ولمقبل ولكل من فكر أن يعتلي حكم هذه البلاد البائس أهلها، يقاتلون بعضهم حول من يعتلي الحكم، ويدفع أمثالي الثمن من أموالهم، وشرفهم وأرواحهم.

(20)

أولاد البلد

طال الحصار، ولم يعد البقاء يجدي نفعًا، كلَّ يوم يمرّ على أحمد يزيد توتره، التوتر الأكبر كان من نصيب سيده، شكك فيه بعض قواد جيشه، وانسحبوا بجنودهم ولاحت في الأفق سحابات من التذمر بين باقي الجنود والعربان، أوشتت مؤنهم على النفاذ أو نفدت بالفعل، وكلَّ يوم ازدادت دمنهور تحصنًا، أطلق الألفي يد رجاله في القرى القريبة يجمعون ما يستطيعون جمعه من علف وغلّال.

شاهد أحمد قرى تُنهب بأّمّ عينيه، فلاحون فقراء لا يملكون شيئًا إلا بقرة هزيلة أو غنمات قليلة، تؤخذ أمام أعينهم ولا يستطيعون الدفاع أو الاعتراض، حتى الدجاجات جُمعت، هدموا بيوت من شكوا فيهم، نُهبت المحلات رغم فقر بضاعتها، ولو حاول أحدهم أن يخفي شيئًا من قوت عياله؛ كان الجلد بالسياط

أقل عقاب يناله، دمعت العيون، وجاع الصغار والكبار، مات من لا يستطيع جسده الهزيل أن يقاوم الجوع أو الجلد، كل هذا من أجل أن يعتلي شخص العرش، تمنى وقتها أن يمتلك سمّ مقبل، لا ليضعه لهؤلاء الأوغاد، بل ليحتسيه كلّه حتى آخر قطرة، ينهي حياته ويتخلص من آلامه، قلبه الضعيف لا يتحمل كل ما رآه، لم يعد قادرًا على أن يرى كل هذا الظلم، بحث عنه في كل مكان يمكن أن يكون قد خبأه فيه، لكن لا جدوى من البحث، كل ما عليه الآن هو أن يتبل تلك العنزات، ويجهزها للشواء وبسرعة؛ فالسادة جائعون.

بعد العشاء الدسم قرر الألفي أن يتريض قليلاً، السماء صافية والهواء نقيٌّ ومنعشٌ، قد يساعده صفاء الجو على التفكير في مشاكله الجسام، جيشه يتأكل، أغبياء وقصيرو النظر ينظرون تحت أقدامهم ويقفون بجانب من يدفع، لا من يدافع عن مصالحهم، وهو قد أوشك على الإفلاس، عليه أن يحقق أي نصر حتى لو كان شكلياً، إن لم يفتح دمنهور ويدخلها؛ سيتفرق من بقي منهم معه، تلاحقهم الهزائم والفشل في الآونة الأخيرة، وصلت له أخبار هزيمة «رجب أغا» وياسين بك في المنيا، لقنهم عابدين بك درسًا في القتال، لو كانا انضما إلى جيشه؛ لقويت شوكته، ولتمكن من اقتحام ذاك الخندق اللعين، الذي يلتف حول دمنهور، وبعدها كان من السهل عليهم أن يدكوا أسوارها، لكنّها الفرقة، المسمار الأول في نعشهم، ملاً رثتيه

بالهواء العليل، وحزم أمره بأن لا عائد من هذا الحصار، غدًا ينهيه ويعود أدراجه منتظرًا أن يبرّ الإنجليز بوعدهم، ويرسلون له التجريدة في أقرب فرصة، وعن قريبٍ سيعتلي عرش مصر، كما أنّها ستكون فرصة رائعة لجنوده، فسيحتكون احتكاكًا مباشرًا بالعسكرية الحديثة، التي يحاول جاهدًا تعليمها لهم، لكنهم اكتفوا فقط بالشكل الخارجي لها.

قبل أن يتنفس الصباح، كان القصر الخشبي مفككًا ومحملاً فوق الجمال. وقف أحمد يشاهد العمال وهم يفككونه بسهولة، ويحملونه فوق الإبل في سرعة ونظام، إنه لمن العجائب، قصر يُبنى ويفكك في سويعات قليلة، ويُنقل بكل سهولة ويسر، حقًا إنّ هؤلاء الأمراء يحيون حياة رغدة، لا ينقصهم شيء من متع الدنيا إلا ونالوه.

وقف رجال الباشا على أبراج المراقبة، متحصنين بسور مدينتهم، يراقبون الحركة في معسكر الألفي، تهامسوا فيما بينهم متسائلين، هل سيرحل هؤلاء اللصوص فعلاً؟ أم أنّها مجرد خدعة من كبيرهم؟ لم يهتموا بالإجابة على تساؤلاتهم، فلو كان راحلاً لعادت الحياة لطبيعتها في بلادهم، ورجع أولاد البلد إلى القاهرة من حيث أتوا، فشجارهم لا ينتهي، وبذاءتهم لا حدود لها، ولو كانت خدعة من زعيمهم؛ فهم مطمئنون خلف أسوارهم القوية، ويكفي دعاء الصالحين لهم ليردّ عنهم كل شر.

كجراد جائع جامح لا حدود لجشعه هبط جيش الألفي دون
رحمة على قرية صغيرة ودخلوها دون أيّ عناء، دقائق قليلة
وقلبوا وردان¹⁰ رأساً على عقب، اقتحموا البيوت دون استئذان
ونهبوا ما فيها من طعام، هاجموا الزرائب وسحبوا ما فيها
ليضموها لقطيعهم، لم يكتفوا بذلك، فطالبوا الأهالي بالدراهم،
ومن أين لهؤلاء المساكين بها؟! لم يترك الملتزمون لهم ما يكفي
معيشتهم، جمعوا مقدماً ضرائب السنة القادمة، تلبية لأوامر
الباشا، ليأتي هؤلاء المجرمون لينتزعوا من أفواههم ما لم يكن
يشبعهم.

من فوق تلة صغيرة مشرفة على القرية صلّى أحمد الضحى،
ودموعه تبلل الثرى، ووقف يشاهد ما يفعله ممالك الألفي،
الدخان يتصاعد للسماء، أحاط الفزع سكان المكان، انفطر
قلبه على امرأة صغيرة، دُهِس ابنها تحت سنابك خيل الجنود
حتى خرجت أمعأؤه، جلست بجانبه تلملم أشلاءه، تصرخ وتنثر
التراب على رأسها، نزل جندي من على فرسه، ووقف بجوارها
وهو ينظر لها في عجبٍ، على ماذا كلّ هذا العويل؟! إنه مجرد
طفل وقد أرحناه من تعب هذا الحياة القاسية، لقد قدمنا
لكِ وله معروفاً يجب أن تشكرينا عليه، لا أن تنوّحي هكذا، ألا
يقتل منا نحن من أجل أن يحكمهم رجلنا؟ هكذا حدّث نفسه،

10- إحدى قري مركز أمبابة بالجيزة تنسب إلى وردان مولى عمرو بن العاص.

انحنى عليها ونزع قرطاً نحاسياً كان في أذنيها ظناً أنّه ذهب، يا لغباكم أيّها القُساة! كيف لقوم لا يجدون ما يكفي قوت يومهم أن يكتنزوا الذهب أو يمتلكوا منه ولو حتى القليل؟! إنّ الغباء الذي يؤلّد من رحم الطمع، والظلم هو الابن الشرعي للاستبداد، نزعه من أذنيها وشقهما من أجل قطعة من الصفيح، عندما علم أنّه ليس إلا قرطاً نحاسياً رخيصاً، ألقاه في وجهها بعد أن كال لها الشتائم، وبصق في وجهها الدامي أكثر من مرّة، بعد عدة ركلات في جانبيها لترقد هي الأخرى قتيلة بجانب فلذة كبدها، يعرف أحمد هذا المملوك جيّداً، إنه شيروان شاب في مثل عمره، جشعه لا حدود له، ذو شره عظيم للأكل، في كلّ ليلة يحضر هذا الشيروان، ويوقظه من النوم ليطلب مزيداً من الطعام، ومهما أكل لا يشبع، لم يترك مكاناً نزل فيه إلا وكان أول من يتحرش بالنساء، ويحاول اغتصابهن، وكثيراً ما تنجح محاولاته.

كيف يمكن للألفي أن يحقق العدل في ربوع البلاد كما كان يتشدد دائماً؟! لقد سمعه أحمد أكثر من مرّة وهو يُقسم بأنّه يحبّ هذا الشعب، وسيعمل جاهداً من أجله، إنّ مجرد كاذب أفاقٍ، وما هو إلا ثعبانٌ خطيرٌ بعيون ذئبٍ، وأنياب ضبعٍ وذيل عقربٍ، جمع كلّ شرور العالم بين حاجبيه، يتمسح في رداء العلم، الذي اغترف منه غرفة أو أقل، بعد أن شاب شعره، وهل يُمكن لأحد أن ينسى تاريخه الدموي؟

في هذا اليوم جدّ أحمد في البحث عن زجاجة السمّ، لا ليشربها كما كان ينوي من قبل، بل ليصبها في حلق الألفي ولو بالإكراه، لكن الحظ لم يحالفه كعادته، فلم يجد السمّ، لا بد أن هناك بديلاً، فعلى حدود هذه الحقول والترع، هناك ما هو أقوى من سمّ مقبل، سيجمع بعض الفطر السامّ، ويضيفها في عشاء هذا السفاح، لو مات لتفرق شمل هذه الشردمة الضالة.

كما بدأ الاقتحام فجأة انتهى كذلك، ترك المماليك الشوارع للأهالي ليجمعوا جثث موتاهم، وإلا سيتخلصون منها في التربة، وعلى عجلة غسلوا موتاهم، وصلوا عليهم، وذهبوا بهم بعيداً خارج البلدة لدفنهم، أنهوا مراسم الدفن، لم يقيموا ليالي العزاء، دعوا لهم دعاءً حاراً بأن يغفر لهم الله ذنوبهم، وأن ينتقم لهم ممن قتلهم دون ذنب، لم يعودوا لديارهم، بل فروا في بلاد الله، عندما لا ينبت في حضن الأمّ إلا الأشواك؛ يصبح هجرها فرض عين، هكذا تهامسوا فيما بينهم وهم يعبرون النيل نحو المنوفية، أما من فضّل الأشواك فرّ إلى الحقول على أطراف القرية.

احتجبت الشمس خجلاً مما فعله بنو البشر، لكن على أحمد أن يقوم بعمله، الغلال متوفرة، اللحم كثير، والخضار الطازج جُمع من الحقول القريبة، أشعل النار تحت الأواني الكبيرة، وبدأ في عمله، يوم كئيب وجو خانق، لا شيء يدعو للبهجة

التي يسمعها من حوله، هؤلاء القوم يجدون هناءهم في شقاء الآخرين، أنهى عمله، وأكل المحاربون وشبعوا، لكنهم لم يشبعوا من دماء ضحاياهم بعد.

حان وقت القصاص، سيجعل أحد وجباته القادمة سيف الحق، وسينتقم لكل الأرواح المعذبة التي أنهكها الظلم والقهر والاستبداد، سيتبل اللحم بالأعشاب السامة، سيطهوها بنيران الكراهية سيغرفها في صحن الحقد، سيتناولها أستاذهم وكبار قواد جيشه، ستتقطع أوعاؤهم، ستنزف حتى الموت، وقتها سيشعر بالرضا حتى لو كان الخازوق عند تل العقارب نهايته المحتومة.

في الظلام، عبر الحقول، بدأت رحلة البحث، ممسكاً بمصباح زيتي صغير ليرشده، من الصعب أن تجد طلبك إذا كان الفلاحون ماهرين، يتخلصون أول بأول من تلك الأعشاب السامة، حتى لا تتناولها بهائمهم عن طريق الخطأ، عليه أن يبحث بدقة وعناية، حتى يجد مبتغاه، وأخيراً عند حقل بعيد في الطرف الغربي وجد القليل من طلبه، اقتلعه ووضع في كيس قماشي علقه في خصره، عاود البحث مرّة أخرى فالأعشاب التي وجدها ليست بالكمية الكافية، حول جذع نخلة قصيرة بالقرب من جرف قناة ري صغيرة وجد كمية لا بأس بها من الفطر السام، سيضعه في طواجن الخضار التي يحبّها الأوغاد، ولن يشعروا بوجودها، وسينتهي الأمر.

جمع الفطر، ووضعه في كيسه، وقف واستدار، ليجد أن موته يبدو أقرب له من الكيس المعلق في وسطه، شيروان يقف خلفه، والحنق سيطر عليه، أمسك بتلابيبه وهزّه بعنف وهو يصرخ في وجهه:

- ماذا تفعل هنا أيّها الوغد؟ لماذا غادرت المعسكر تحت جُح الليل يا حقيير؟ هل واعدت إحدى مومسات هذه القرية؟ كم ستدفع لها؟ من أين أتيت لها بالمال؟ أم أنّك ستمنحها بعض الطعام مقابل مضاجعتها؟ لا بد أنّه في هذا الكيس، أعطني إياه الآن فأنا جائعٌ للغاية، لماذا لا تجيبني أيها الأبله؟

لم يتوقف شيروان عن هزّه بعنفٍ، حتى بعد أن توقف سيل أسئلته، كان من الواضح عليه أنّه ثملٌ، رائحة الخمر تفوح من فمه الواسع، إنّها نفس الرائحة التي كان يشتمها من فم عالم بونا برته «فانسان»، الذي خدمه لعامين، لكنه عندما كان يثمل غالبًا ما كان يصمت أو يبكي، وبعد أن يفيق يشعل شمعة أمام تمثال للمسيح وهو مصلوب، يجثو على ركبتيه، ويتمم بكلمات مبهمّة، والدمع يفيض من عينيه، أما هذا العريد لا تعرف الدموع طريقًا لعينيه، لا يكف عن الصياح، سقط أحمد على الأرض، جثا مهاجمه على ركبتيه لينزع منه الكيس، برز مقبض الخنجر الصغير الذي علقه النهم في حزامه، نزع شيروان الكيس من خصر أحمد قبل أن يفتحه؛ انتزع الملقى على الأرض الخنجر

وبسرعةٍ غرسه في صدر الجندي المملوك، ليخرّ على الأرض
مخضّبًا في دمه، نهض ماسك الخنجر وطعنه طعنات عديدة
حتى تأكد من موته، وترك أداة قتله مغروسة في صدره، والكيس
في يديه وهرول عائداً لينام، أو ليتعايش مع كوابيسه المرهقة
المؤلمة.

(21)

العفو

تخلص أحمد من ملابسه فحرقها حتى لا يخرج له عفريت
شيروان ويخنقه، لكنه لم يتخلص من خوفه، لم يذق النوم طوال
الليل، كلما حاول أن يغمض عينيه تخيل شيروان يُقيده إلى النخلة
القصيرة، التي قتله تحتها، ويتناوب على اغتصاب أخته، وابنة
خالته أمام عينيه، صراخهما يصمّ أذنيه، وهو عاجز أن يفعل لهما
شيئاً، طال ليله وجافاه النوم، لازمته كوابيسه ولم تفارقه.

سيكتشفون غياب رفيقهم، وكيف لا يكتشفون وهو أكثرهم
ضحيجاً؟! ومع قليل من البحث سيجدونه ملقى تحت هذه النخلة
اللعينة، تَبًا للشيطان لقد نسي كيسه القماشي في يد مقتوله!
سيتعرفون على قاتله بمنتهى البساطة والسهولة؛ فالكيس من نفس
قماش جلبابه، سيصلبونه ويقطعون أطرافه قبل أن ينهوا حياته، ربما
علقوه على مشنقة وأشعلوا النار من تحته؛ لتأكل أطرافه، وبالتأكيد

سيجدعون أنفه ويقطعون أذنيه ويفقأون عينيه قبل أن ينفذوا فيه الإعدام، تجمد الدم في جسده، امتقع لونه وغارت عيناه، لقد فقد حياته وشبابه مقابل عنيد لا يساوي شيئاً، لو كان ذلك مقابل رأس الألفي لكان له الفخر، من بضع سنين حسد الحلبي على ميته، لقد فاز بالجنة والمجد، لكنه سيموت بطريقة أبشع دون عائد يذكر.

غادر فرشته بهدوءٍ، وحزم أمره على الهرب، سيتسلل تحت جناح الليل من المعسكر، سيختبئ في الحقول يوماً أو يومين، وهناك سيتدبر كيفية خروجه من هذه المنطقة؟، أزاح طرف باب خيمته، الظلام دامس، الهواء بارد، ارتجف جسده، تلفت حوله، ليس هناك شيء إلا صوت مساعده عُكرش غارقاً في النعاس في خيمة المؤمن المجاورة، شاب لا علاقة له بالمطبخ إلا ازرداد ما يجده في الأواني، أو ما تبقى من وجبات السادة، وجده يعمل في مطبخ الألفي قبل أن يلتحق هو به.

في الطرف الآخر من المعسكر خيمة الألفي، مصباح شحيح النور يرمي بالظلال أكثر من النور داخل الخيمة، لعله نائم الآن يحلم بعرش مصر، تمهل قليلاً قبل أن يطلق لساقيه العنان، داعبته فكرة مجنونة، هو في كلِّ الحالات مقتول دون رحمة، لماذا لا يحقق هدفه الآن؟ كلُّ ما عليه أن يزحف للخيمة المضيئة، وبهدوء ينحر الزعيم، لو تمكن من الهرب بعد ذلك خير وبركة، وإن لم يستطع فليكن لموته ثمن مناسب، نظر نحو السماء السوداء تماماً، وكأنَّ

النجوم قد سُرقت أو سافرت لسماء أخرى، هل ستنبئ فوقه مرة أخرى؟ تساءل وفي قلبه غصة.

تراجع عن فكرة التّخلص من الألفي، فلا بد أن هناك حراسًا يقفون بالقرب من خيمته، سيقبضون عليه قبل أن يقتحم عرين الأسد، ويقدمونه قربانًا لطاغوتهم، عليه أن يتحرك بسرعة، ودون أيّ جلبة حتى لا ينكشف أمره، قبل أن يخطو خطوة واحدة انفتح باب خيمة الزعيم، وخرج منها شبح، تسمر في مكانه، لم يقدر أن يحدد في أيّ اتجاه يمشي الشبح، ثوانٍ قليلةٍ كانت يده على كتفه تجره برفق نحو الخيمة المضيئة.

اكتشفوا فعلته دون شكٍ، كلّ ما عليه أن يعترف أمام أستاذهم، سيصدر الحكم بطريقة قتله قبل أن يكمل اعترافه دون إرادة منه مشى مع صديق شيروان المقرّب، الذي لم ينبس بكلمةٍ، نظرات عينيه كفيلة بإثارة الرعب في قلوب الموتى.

فتح الجندي باب الخيمة، وتقدم داخلًا، لحظات ثقيلة مرت على أحمد كساعاتٍ طوالٍ، يتهامسون داخل الخيمة في طريقة إعدامه، حقًا هو لا يسمع ما يقولون، قلبه يرشده وهو أبدًا لم يخدعه يومًا، سمع صوت الألفي كهزيم الرعد ينادي عليه، ارتجف بدنه، وسابت مفاصله، وهو يجرجر قدميه داخل الخيمة، نظر الأستاذ له بطرف عين أجهدها السهر، وقال بصوتٍ متعبٍ:

- سرحل مع بعض جنودنا قبل الفجر، سنصطحبك معنا، اذهب
وجهب الأدوات اللازمة لطبخ هذا الطعام الغربي، إن لم يعجب
طبخك ضيفي تأكدي أن نهايتك قد حانت.

التفت لجندي آخر على شماله، وبدأ يعطيه الأوامر، وقف أحمد
مذهولاً.. لا يصدق ما يسمع، لم يكتشفوا بعد مقتل صانع الجلبة
في المخيم، أو ربما اكتشفوا والأمر لا يهمهم، هم معتادون على
ذلك، يقتلون ويُقتلون، صاح جندي على يمين الألفي به:

- لماذا تقف هكذا؟ هيا بسرعة جهز عدتك، الوقت يداهمننا أيها
المتخلف.

خرج من الخيمة، أسرع نحو الخلاء، كان على وشك أن يبول
على نفسه، شعر ببرودة مفاجئة على قفاه، بجانب شجرة وقف،
ارتعش جسده، والبول لا يتوقف عن الخروج، وبسرعة ذهب لخيمة
المطبخ، أشعل المصباح المعلق في وسطها، وجمع كل ما يحتاج
من أدوات وموئن، أخرجها من الخيمة، حزمها ونقلها لعربة صغيرة،
شدَّ عليها حصان عجوز ولم يطل انتظاره، ما هي إلا لحظات وتجمع
الجنود وعلى رأسهم الألفي بملابسه الفخمة، وسيفه الكبير بمقبضه
الذهبي والمزين بفصوص من الياقوت، تعالى صهيل الخيول معلنة
بدء الرحلة لولا دخول جندي يسحب حصانه خلفه وعلى ظهره جثة
مغطاة بقطعة من الخيش، اقترب الجندي من قائده وهو مطأطأ
الرأس، سارع الألفي بسؤاله:

- من هذا؟

- شيروان.

ترجل الألفي من على جواده، رفع الخيش، كانت جثة شيروان عارية تمامًا، عاود استجواب الجندي:

- أين وجدته؟

- هناك في شمال القرية تحت نخلة، يبدو أن بعض الفلاحين اجتمعوا عليه وقتلوه ثم سرقوا ملابسه، وقطعوا علامة رجولته ووضعوها في فمه.

أعاد الألفي النظر إلى جثة شيروان، تملكه الغضب تمامًا، وحاول أن يسيطر على أعصابه، لكن هيهات، فعندما يملكه الغضب لا تجدي أي محاولة لكبح جماحه، نظر نحو السماء قبل أن ينطق بحرف، وكأنه يستحضر روح القتيل ليسألها عن ما يرضيها كثرًا لمقتله:

- بعد أن تنتهوا من غسله والصلاة عليه ودفنه، ابحثوا عن أي فرد من أبناء هذه القرية التعيسة لا بد أنه القاتل، لا تقتلوه، اجعلوه يتمنى الموت ولا يدركه، وإن وجدتم أكثر من واحد فهم شركاء في الجريمة، أطيلوا عذابهم قدر المستطاع، اجعلوهم مثلًا وعبرة لمن لا يعتبر، وفي النهاية اقتلوهم بالتنصيص.

قفز برشاقة على صهوة جواده، تحرك الجيش الصغير المصاحب له على مهل وخلفهم أحمد جالسًا بجوار أدواته، امتقع وجهه عندما علم أنهم عثروا على جثة هذا المملوك الوغد، تسارعت أنفاسه وجف حلقه، سقط قلبه عند كعبه، شعر وقتها أن ملك الموت يحوم فوق رأسه يكاد ينقضّ عليه، لكنّ دقائق الطبول شتّتت كل الأوهام التي حامت أمام عينيه، قاد العربة عبد ثرثار، لم يتوقف عن الحديث مع عُكرش، الذي جلس بجواره.

لم يوجهوا له أيّ اتهام، عثر عليه فلاح أو أكثر من أهل القرية، خلعوا ملابسه وسلبوه سلاحه، وبالتأكيد لم يتركوا الكيس القماشي، ولم يكتفوا بذلك لكنهم قطعوا قضيبه، وأطعموه إياه، ارتاح لهذه الفرضية، تنفس الصعداء وراح في نوم عميقٍ جوار الحلل المعدنية التي زاد ضجيج اصطكاكها ببعض، النوم سلطان، له الكلمة العليا، وما علينا إلا الطاعة.

ساعات من السفر المرهقة، حتى وصلوا حوش عيسى، توقف الجند بعدهم بقليل، وصلت عربة المطبخ وعربات أخرى للفراشين، في خلال دقائق قليلة كانت خيمة مربعة مزخرفة بألوان زاهية منصوبة ومفروشة، جلس الألفي أمامها يتابع إنشاء معسكره الصغير. في أقل من ساعة وقبل زوال الظل كان كلّ شيء جاهزًا، دخل الأمير خيمته يدخن نرجيلته، تفرق الجنود في خيامهم ليستريحوا وأسرع أحمد في تجهيز وإعداد المطلوب.

سويغات قليلة ووصلت لمسامعه دقائق الطبول، لقد وصل أحد الضيوف بكل تأكيد، أسرع يستكشف الأمر، رجال بيض يضعون قبعات غريبة على رؤوسهم، يحيطون برجل نحيف، يميل للطول قليلاً في مثل لون بشرتهم المشربة بالحمرة، يضع نظارة ذات إطار ذهبي على أنفه وينظر حوله في ثقة، خرج كل من دخل خيمته منذ قليل، اصطفوا في طابورين، تلمع سيوفهم في شمس العصر، واقترب من خيمة الألفي، الذي وقف متبسماً خارجها في استقبال القنصل الإنجليزي، تصافحا ودخلا وحدهما الخيمة ومعها المترجم، دخل رجال القنصل وكبار جنود الألفي في خيمة أخرى كبيرة، ينظرون في إعجاب إلى المسدسات المزخرفة المتدلية من أحزمة الأوربيين، أسرع أحمد ليستكمل عمله، جمع كل خبراته اليوم، ونفذ وصفات زوجة العالم الفرنسي بكل دقة.

وُضع السماط على منضدة مرتفعة، فهو يعلم عاداتهم كلَّها، ورصت الأطباق بطريقة معلومة؛ بجانبها الملاحق والشوك والسكاكين الفضية مرصوة بطريقة بديعة، رائحة الطعام أثارت شهيتهم، ومع ذلك لم يكن لها أي تأثير على قادة الشرق أو أميرهم، الذي جلس على رأس المنضدة ليشارك جناب القنصل وجبته على مضض منه، ومع ذلك تكاد الفرحة تقفز من عينيه، ظن أحمد أن عمله يعجبه، لكنه كان سعيداً بالرسالة الصادرة من البلاط العثماني، بالعفو عن الأمراء المصريين.

على الفور وما إن انتهوا من طعامهم حتى أغدق على أحمد بكيسٍ من الدراهم، لم يصدق نفسه فهو لم يحلم يوماً بأن يمتلك مثل هذه الثروة، أسند ظهره إلى عامود خيمته، وأخذ يهز الكيس بين يديه، ويستمتع لصوت الدراهم وهي تتراقص بداخله، وقد عاودته حالة من الحزن على أهله وغيابه عنهم.

فُرِعت الطبول مرة أخرى لتتمازج مع صوت طلقات المدافع في صخبٍ مفرغٍ، خرج الألفي من خيمته، مشى وسط ساحة معسكره كطاووس مغرور، وحوله جنوده فرحين يودعون الأوربيين بحرارة، لم يكتفِ بهذا بل أرسل معهم كبار رجاله ليصطحبهم للبعيد، العفو يشمل الأمراء هناك أيضاً، شعر بالزهو وغاص في أمانيه بأن يجتمع حوله كل الأمراء، ليعتلي العرش ويعيده للمماليك بعد قرون طوال.

يعلم جيداً أنهم لن يلتفوا حوله ويؤيدوه إلا إذا حقق نصرًا بينًا على غريمة، ثم عليه أن يغريهم بالمال والمناصب، سيعدهم الآن بذلك، ويبزّ بوعده عندما يصبح الوالي، لكن الآن وحالاً، يجب أن يجعلهم على الحياد، لا منضمين له ولا مائلين للآخر.

عاد لخيمته وطلب كاتبه، أملاه رسائل طويلة، منى فيها شيوخ الأزهر وكبار التجار ومشاهير الناس بالخير الوفير، بعد أن زف إليهم خبر رضا الباب العالي عليهم، لم ينسَ أيضاً مكاتبة شيوخ قبائل العربان؛ فعدوه اللدود يستخدمهم كثيرًا، كانوا يدينون له بالولاء، إلا أن الثعلب الماكر عرف كيف يستميلهم بالمال ومعسول الكلام.

للمال بريقٌ ساحرٌ يمهد الطرق الوعرة، ويجعل العدو صديقًا،
ويقلب المناوأة لحليف، والباشا أدرك ذلك جيدًا منذ زمن بعيدٍ..
عمله بالتجارة علّمه كيف يشتري الذمم، وله في ذلك باع طويل،
جلس في بيته وحوله مشايخ العربان، يكرم ضيافتهم، ويرحب
بهم، ويسمع ما كتبه الألفي لهم، الذي طلب منهم أن لا يساعده
في تنقلاته، تبسم وهو يسمع كلامه، حَكَّ فخده بيده وهو ينعته
بالكاذب المجنون، أهداهم من ثمين ما عنده، خرجوا يسبحون
بحمده ويشعرون في كرمه، ولمَ لا يفيض عليهم بكرمه والمال
يجبیه له الملتزمون من دماء الفقراء والمعدمين مقدمًا عن السنة
القادمة؟! وهل كانوا قد رأوا خير هذه السنة حتى يحصل على
القادم من الأيام؟!

(22)

ذكريات

داعب نسيم يونيو أعلام السلطنة العثمانية المعلقة فوق
صواري سفنها الحربية الراسية مقابل شواطئ الإسكندرية،
وقف قبودان باشا ينظر نحو أبراج الثغر، ذهب بفكره بعيداً،
عندما كانت تلك المدينة قبلة العالم وحاضرتة، حاكوا حولها
الأساطير والحقائق وبها تغنوا

«إسكندرية ماريا وترابها زعفران».. ليست المرة الأولى له
في الإسكندرية، فقد زارها من قبل، عندما كان ضابطاً صغيراً
في البحرية العثمانية في صحبة أحد الولاة، سار في شوارعها
الضيقة، تعجب كيف لهذه الخرابة أن تكون ماريا؟! لكنه أدرك
أن جمال المكان وسحره في أشياء لا يستطيع لمسها، ويصعب
عليه وصفها، ربما بواقى البنايات الرومانية، أو تلك الفتاة
التي أعجبته، عندما كان في السوق بشعرها الأسود القاتم،

وعينيها العسليتين، وخصرها النحيل، وأردافها الممتلئة، وقد تكون تجمعات الصيادين وأهازيجهم، التي يدعون فيها الله أن يرزقهم من حلاله، هو نفسه لا يعرف ما سبب تعلقه بهذا المكان، قطع صوت موسى باشا حبل ذكريات القبودان قائلاً:

- متى سنتوجه إلى القاهرة؟

نظر قبودان باشا نحو من يحدثه، بعد أن انقشعت غمامة الذكريات من فوق رأسه، تنهد تنهيدة صغيرة وما زالت ابتسامته تداعب شفتيه:

- عن قريب موسى باشا، اطمئن، فَعَرش مصر يشتاقي إليك.

هدأت هذه الكلمات بعض الشيء من روع الرجل، دفع الكثير من أجل هذه اللحظة، وعليه أن يستمتع بشمس يونيو، ونسيم الصباح، قبل أن ينهمك في مشاق الحكم، واستعادة ما دفعه من رشاوى حتى يُصدر له فرمان تعيينه، لكنه يشعر بأن قبودان باشا يضر شيئاً في نفسه، لا يريد أن يفصح عنه، ملأ صدره بهواء المتوسط المشبع برائحة الملح والرطوبة، زفر بقوة وهو ينظر لعلم سلطنته يرفرف فوق صاري البارجة، متخيلاً أن زفيره هو ما يحركه.

نظر قبودان باشا نحو رفيقه الغارق بأوهامه، هذا المسكين يعتقد أن خليفة المسلمين حرك كل هذه القطع البحرية من

أجل أن يعتلي هذا المغبون عرش مصر، ألا يعلم أنّ السلطان منحه صلاحيات كاملة؟ قد يعين هذا الذي يقف بجواره في الحكم، وربما يولي محمد بك الألفي، ليعتلي سدّة العرش في مصر بناء على رغبة الإنجليز أصدقاء السلطنة، ولو اقتضت المصلحة أن يثبت محمد علي على عرش مصر لن يتأخر في هذا، لكن أي مصلحة يقصدها؟

قد تكون مصلحته الشخصية، وربما مصلحة الباب العالي، الذي تحيط به المكائد من الداخل والخارج، وربما مصلحة أصدقائه الإنجليز، كلّ هذا سيتوقف على ما ستظهره تلك الأيام القريبة، من سيقدّر مجهوده ويجزل العطاء هو من سيعتلي العرش بالطبع.

لا يهتم كثيرًا بالوقت، حياة البحر علمته أن العواصف قد تطول، لكن لا بدّ أن تنتهي وقتًا ما، لا يهم متى ستنقضي، فكل ما يشغل باله وقتها هو المحافظة على موقعه دون أيّ خسارة، لكن ما إن تتوقف؛ عليه أن يحدد كيف يستفيد مما حدث؟ كل ما يدور حوله، هي معارك مختلفة الأنواع متباينة الطباع، يديرها بحنكته، ليحقق منها أكثر ما يمكن قنصه.

ثلاثة يتناحرون ويتشاجرون، ويحركهم شبق السلطة، ولكل منهم طبيعته، هذا الذي يقف بجواره، والذي يطمع في استعادة ما دفعه مضاعفًا، محمد بك الألفي الذي رمى

نفسه في أحضان الإنجليز؛ عله يعيد مجد المماليك القديم، الذي زال على يد سلطان عثماني منذ قرون عدة، وابن كفالاً، الذي وصل لسدة الحكم على غير العادة، دون أن يغرم قطعة ذهبية واحدة.

ماذا لو كان الأمر بيد قبودان باشا؟ هكذا فكر الباشا، وهو يحرك يده على مقبض سيفه، من سيختار من بين هؤلاء الثلاثة؟ بالطبع وبكل تأكيد لن يقبل هذا الألفي والياً على أي ولاية عثمانية، خاصةً لو كانت مصر، ولاؤه للإنجليز واضح وضوح شمس الإسكندرية هذه، وطمخ البريطانيين في سلطنتهم أكثر سطوعاً من شمس هذه الظهيرة، بالطبع لن يقع اختياره على ابن كفالاً، تحدى خليفة المسلمين وخادم الحرمين مرتين، الأولى عندما لم ينفذ فرمان ولاية جدة، والثانية وهي الأخطر عندما وافق أن يتولى ولاية المحروسة قبل صدور فرمان سلطاني بذلك، هذا لا يعني أنه سيوافق على تعيين هذا الموسى، هو لا يختلف كثيراً عن معظم الولاة الذين يديرون الولايات العثمانية، مجرد قادة عسكريين انتصر من انتصر، وانهزم من انهزم منهم في ميادين القتال، لا علم لهم بأصول الإدارة أو فنون السياسة.

نظر نحو العلم المرفوع على صاري بارجته العسكرية في عزة، ثم تذكر مجداً قديماً، حينما كانت تتوقف الكنائس

الأوروبية عن قرع أجراسها على طوال شواطئ البحر المتوسط
عندما تمرّ أيّ سفينة ترفع مثل هذا العلم، عاودته ذكريات لم
يعشها، لكنّه سمعها كثيرًا، تلك أيام لن تعود أبدًا طالما يتولى
موسى باشا وأمثاله منصب نائب السلطان بأوامر سلطانية.

(23)

الزحف المقدس

لم يتوقف صياح الألفي من داخل خيمته، تجمع الجنود حول الخيمة، ولا يجرؤ أحدٌ على الدخول، فهم يعلمون جيداً أن الشيطان نفسه لا يستطيع أن يشارك أستاذهم هذه الخيمة في لحظات غضبه، طالت اللحظات وصارت دقائق، والسباب لم يتوقف:

- أغبياء، حمقى، أرسلت ثلاثين حصاناً، أربعة آلاف رأس من الغنم، مئة من الجمال المحملة بالذخيرة، والكثير من الأقمشة، كل هذا مجرد هدية بسيطة كدفعة أولى لقبودان باشا، ألا يعلمون أن عرش مصر يستحق أكثر؟! ألف وخمسمائة كيس من الذهب، تعهدت أن أدفع ثلثهم، وتتكفل باقي بيوت المماليك بالمتبقي من المال، لكنهم معاتيه لا عقول لهم، فقط يفكرون بمؤخراتهم المترهلة.

عمّ الصمت المخيم، إلا من بعض الهمهمات الجانبية بين جنود الألفي، وقف أحمد ليس ببعيد عنهم منصتًا لا يفهم معظم ما يسمع، أرسل البك هدايا لقبودان باشا، وتعهد بدفع أكياس ذهبية سيشاركه فيها الأمراء المصريون، رفضوا ذلك وطلبوا أن يدفع هو المبلغ كله وحده، عاد الصخب مرة أخرى من داخل الخيمة المربعة، ليقول:

- يحسدونني لأنّي أرسل السلاطين والوزراء! ويلومونني لأنّي أسعى إلى استعادة عرش المحروسة، ملاعين أفاقين، سينقرضون كما تنقرض الحيوانات الغبية الغير قادرة على فهم المستجدات، وهؤلاء الشيوخ أولاد الحرام الآن يتبرأون مني، لا يردون على رُسلي، صدق فيهم قول البرديسي: ما هم إلا عرائس يحركها من يعتلي العرش، ذات يوم سأحشو رؤوسهم بالتبن وأعلقهم على أبواب القاهرة.

كسا الغضب وجوه أمراء وجنود البك، لا يستطيعون أن يروا أستاذهم في هذه الحالة ويقفون مكتوفي الأيدي، لو طلب منهم نقل المقطم لفعلوا، ليخرج لنا ويأمرنا أن نحول القاهرة إلى مجرد ركام وسنفل، لو أمر أن تأتي له برأس الشيوخ الآن لتسابقنا في جزها، ويكفي أن يشير ونحن نسرع في الانصياع، لكن الصوت من الخيمة عاد للارتفاع:

- من سيفي بالتزاماته هو من سيعتلي العرش، الألباني يدرك ذلك جيدًا، لم يغب ذلك عن ذهني أيضًا، من سيسبق ستكون الفرصة له، وأنا سابق بخطوة بل خطواتٍ، فرمان بالعفو عنا، وفرمان سلطاني بنقل الثعلب إلى سلانيك، نعم هناك فرمان آخر بتعيين نائب للسلطان غيري، لكنّ ألفًا وخمسمائة كيسٍ من

الذهب قادرة أن تجعل هذا الفرمان لا قيمة له، مبلغ ليس بكبير يسهل جمعه إذا ما تعاون معي المناكيد، أيعتقدون أنني لا أستطيع أن أواجه هذا الأمر وحدي؟ انزاح باب الخيمة، وخرج الأستاذ لجنوده، أحمر العينين، منتفخ الأوداج، شعره مهوش، بكامل ملبسه العسكرية، في يمينه سيفه وفي يساره خوذته، نظر فوجد جنوده كأنهم عفاريت من الجن خرجوا من قماقمهم، تملأهم الحماسة وينتظرون منه الأمر ليلبوا النداء، وقف وسطهم وأصابته روح الحماسة، التي استشرت وسط أتباعه، صاح فيهم مُخْمَسًا:

- نحن قاب قوسين من العرش، ستصبحون سناجق وكشافين، سنحكم قبضتنا على البلاد من شمالها إلى جنوبها، ستمتلئ خزائنكم بالذهب والفضة، وستعمّر قصوركم بالحريم من كل جنسٍ ولونٍ، سنستعيد مجدنا الأول، لن نترك بلادنا من أجل هذا الألباني، سيعود الشيوخ لكنفنا، ما إن أدخل القلعة؛ سيسارعون ليعلنوا البيعة ويدعون لي على المنابر، أؤكد لكم هذا، لكن هذا يحتاج لكفاحٍ شديدٍ، نبحث عن نصر قريب يجعل الكل يعرف بأسنا.. هل أنتم مستعدون؟

اشتعل المعسكر بالحماس، الكل يعلن جاهزيته بطريقته، طلقات نارية تشق السماء، سيوف مشهرة تلمع في سماء الظهيرة، حناجر ألهبها الهتاف، وبسمة ثقة علت وجه الأستاذ وهو يضع خوذته على رأسه، مشيرًا ببداية الزحف المقدس نحو عرش المحروسة.

(24)

النجيلة

في صفوف منتظمة تسبقها الطبول، تحرك الألفي بجيشه دون أن يعلمهم إلى أين، أرسل يستدعي باقي الجيش، أدرك السناجق أنهم في طريقهم نحو دمنهور مرة أخرى، هذا الرجل العنيد لن يثنيه أحد عن رغبته في اقتحامها، وجعلها مركز لسلطته، نقطة بداية لينطلق منها نحو القاهرة بعد أن تحتل تجريدة الإنجليز الإسكندرية، سيعود مرة أخرى للأمم الدنيا، ومنها سيفرض سيطرته على الوجه البحري كله في غضون شهرٍ أو أقل.

اجتمع جيش الألفي كاملاً، أرسل عيونه ليستكشفوا الطريق، لم يبتعدوا كثيراً، وعادوا مسرعين وهم أقرب للفرع، في خيمته الخاصة وقفوا أمامه يصفون له جنود الباشا، الذين تجمعوا في النجيلة، خليط من العساكر الذين كانوا في الرحمانية ومرقص وجنود الدلاة، ليسوا ببعيدين عنهم بالرغم من أنّ كلمة الدلاة كافية لإثارة الرعب في قلب أي جيش، لكن حماس جيش الألفي كافٍ لهزيمتهم، اصطفوا للانطلاق.

وقف قائدهم أمامهم في زهوٍ يتفقدهم، مرَّ بحصانه بين الصفوف، اطمأنَّ على جاهزية رجاله، طلبوا منه الموافقة على الانطلاق، هز رأسه نافيًا وابتسامته تنير وجهه، في الصباح اطلع على الهيئة الفلكية للشمس فطالع اليوم لا يبشر بالخير فالיום ليس يوم سعدة؛ ففي المساء سيجتمع الثوران وفي الليل سيطلع هيئة الاختيارات، ستخبره بيوت الكواكب بالوقت المناسب لشن هجومه، ربما في الغد أو بعد الغد يبدأ معركته.

طلب استقدام حريمه وهو في انتظار وصولهن، هكذا طلب من كبار جنوده أن يستدعوا حريمهم، أرسل في طلبهم ليؤكد لجنوده أنه واثق من النصر، قبل أقول الشمس بقليل، تقاطرت وفود الحريم في حراسات خاصة، نصبت خيمة كبيرة للمطبخ خلف خيام الجيش وخلفها خيام الحريم، كان يومًا من العمل المضني لأحمد وزملائه من الطبّاحين، فإطعام جيشٍ كبيرٍ كهذا ليس بالعمل اليسير، حتى عُكرش كان يعمل بجِدٍّ على غير العادة، ينقل صواني الطعام من المطبخ لخيام الحريم بخفة وسرعة، تتناقض تمامًا مع جسمه السمين، وبطنه الكبير المدور المتدلي أمامه، وبنفس السرعة يعد أسمطة للجنود، يبدو أنّ حرارة حماسهم أصابت الجميع.

لم يعد يهتم عُكرش بمراقبة أحمد كعادته السابقة، في البداية اعتقد القاتل السري أنه يراقبه ليتعلم سرّ الصنعة منه، أو ربما هو أحد عيون الألفي في المطبخ، وينقل له الأخبار والأفعال، وما يدور في هذا المكان المهم، ماذا لو عثر عُكرش على السّم؟ بالتأكيد سيخبر سيده بذلك،

ورغم طول مراقبته له لم يتعلم شيئاً ولا حتى كيفية تقشير البصل، ولم يعطِ أيَّ اهتمام ولو بسؤالٍ عابرٍ عن الإضافات، التي يضعها أحمد أثناء عمله، لكنه يشكّل دائماً مصدر قلق له، لا يعرف لذلك سبباً محدداً، لكنّ طريقة مراقبته تزعجه وتثير أعصابه.

أرعى الليل ستار الظلمة، وخرج الألفي ومعه بعض المعدات، حملها خدامه ونصبوها له بعيداً عن نيران المعسكر، نظر نحو السماء بعد أن رسم في ورقه مربعين داخل بعضهما، قسّم المربع الخارجي الأكبر إلى تسع مربعات متساوية، خطّ رموزاً فلكية، وعاود النظر للسماء، ودوّن ملاحظاته داخل مربعاته الغريبة، وصل خطوطاً مستقيمة بين الرموز ثم تأملها بعد أن انتهى، تبسم وعاد للمعسكر يسبقه الأمل.

اجتمع بقواد جيشه، وألقى أوامراً سريعة، وكلماتٍ مقتضبةً، وفي دقائق انفض الاجتماع، توجه لخيمة حريمه، تناول عشاءه الدسم، وتمتع بعروض اشتاق إليها من الغناء والرقص، خلد للنوم بين أحضان نسائه، وحلم الانتصار في معركة الغد يداهم عقله، الذي انتشى بغنج زوجاته وحريمه.

مع بزوغ شمس الصباح، امتد جيش الألفي خلفه ليسدّ عين الشمس، تفقد جنوده، وانتظامهم وهو على صهوة جواده، عاد إلى مقدمة جيشه ونظر خلفه في فخرٍ، ظهرٌ مستقيمٌ، وصدرٌ منفوخٌ، واستل سيفه من غمده وأخذ يخطب في جنوده، قائلاً:

- أرسل لنا جرد تركيا جنوده بمهّد طريقنا للقلعة، سنقضي عليهم
ونبيدهم جميعًا، أثق في قدرتكم كما أثق في ولائكم، بعد ذلك سنحاصر
دمنهور مرة أخرى، هذه المرة لن نتزحزح من حولها إلا وهي بين يدي
ثمره ناضجة شهية، ما هي إلا أيام وأحكم قبضتي على مصر، أعدكم بأن
تعود إلى كنف أمرائها، هيا إلى الأمام.

تعالت دقات الطبول وتحركت صفوف الفرسان على مهلٍ في ثقة
مفرطة، ارتفع الغبار تحت سنابك الخيل، راقب أحمد من فوق شجرة
مُغادرة الجيش داعيًا الله القدير أن يُباد الجيشان، ويعود إلى حارته
ليزف إلى ابنة خالته في أقرب فرصة، في مقدمة الصفوف هناك حلم
آخر يطفو في عقل محمد بك الألفي، سيُخلد المصريون سيرته كما فعلوا
مع أول مملوك يحكم البلاد، سيحكى الحكائيون حكايته في المقاهي
وفي الموالد، سينافس الظاهر بيبرس وأبو زيد الهلالي، وسيف بن ذي
يزن، وبعد عمر طويل سيتحول ضريحه بعد أن يموت لمزار للمصريين
من كل صوبٍ، تقاد من أجله الشموع، وتنذر له الندور، وتقام له الموالد
والاحتفالات، وسيكون قدوة لكل من سيعتلي عرش مصر فيما بعد،
وستكون معركة اليوم أول حجر حقيقي في قصر مجده التليد، هكذا
حدّث نفسه وهكذا تمنى.

اختفى الجيش من أمام أحمد لكنه ظهر أمام جنود أعدائه، اجتمع
جيش العدو مكونًا كتلة بشرية كبيرة، على الجانب الآخر انتشر جيش
الألفي على شكل قوس كبير، صعد القناصون على الأشجار العالية

بينادقهم وذخائرهم، وما هي إلا لحظات حتى اندفع جنود الباشا نحو منتصف جيش الألفي، الذي تراجع للخلف قليلاً، تقدمت الأجناب بنفس القدر، أطبق جيش الألفي على عدوه يحصد منهم الأرواح وكأنه عقدَ معاهدة مع ملك الموت، وتبارى القناصون من فوق غصون الأشجار العالية فيما بينهم من سيقتل أكثر، لم يمرّ وقت طويل حتى كان النصر حليف الألفي، أحاطوا بجيش الباشا، تقريباً إحاطة كاملة، تمازجت أصوات رصاصات القناصة مع صوت نوبات الضحك الهستيري على هيئة الدلالية وهم يجرون ويرمون بأنفسهم في النيل طلباً للنجاة، طراطيرهم تكاد تغطي صفحة النهر، وهكذا انتهت المعركة أسرع مما توقع لها الألفي.

انقسم جنود البك إلى قسمين اثنين، الأول: يجمع الغنائم من خيولٍ وسلاحٍ وخيامٍ وجباناتٍ، أما القسم الثاني: يجمع الأسرى ويصفّهم في صف واحدٍ، دارت بينهم المنافسة في التفنن في قتلهم بالطرق الأكثر إيلاً، منهم من اقترح التوسيط، وآخرون تحمسوا للفسخ، البعض اقترح الخازوق، رفض الأستاذ كل هذا، ليس لرحمة أو شفقة ولكن لضيق الوقت؛ أمر بإطلاق النيران عليهم.

فرغ الميدان من أي جنود أحياء للباشا، وامتلاً بقتلاهم، ودون أوامر من قائدهم قُطعت رؤوس القتلى والأسرى في سلال كبيرة لتشق طريقها إلى قبودان باشا ليشهد على قوة وغلبة الألفي.

(25)

الأوباش

تطاير خبر الهزيمة في أركان البلاد، هكذا تصل الأخبار السيئة سريعاً على الدوام، وما هي إلا بضعة أيام، وتقاطرت بقايا جيش الباشا على القاهرة، ملابسهم العسكرية مجرد أسمال، أسلحة مفقودة، حفاة، شعر أشعث، عيون زائغة، وكرامة مهدورة، وهل هناك وصف مهين لهم أكثر من أنهم فلول جيش منهزم؟!!

اكتظت بولاق بأهل القاهرة، والتفوا حول فلول العساكر، نظرات الرثاء ملح يكوي جروحهم، مصمصاة الشفاة تثير غضب المهزومين، تنفلت أعصابهم المعطوبة، يهددون ببواقي أسلحة بالية، وأجسام طحنها الجوع والتعب، ونفوس أرهقها ذل الشتات، فباتوا قطعاً بريّة جريحة، تطارد الأهالي دون هدف، تبدلت شفقتهم عليهم لسخرية

لاذعة، تقلقهم ضحكاتهم ولمزاتهم، ألا يكفي ما ينتظرونه
من الباشا حتى يسخر منهم هؤلاء الرعاغ؟

- «عودوا إلى بزّ إمبابة.»

هكذا كانت أوامر الباشا، وترك هؤلاء الملاعين دون
تربية! لن يكون هذا أبدًا، انصاعوا لأوامره، لكن النفوس
تضمر الشر، قسّموا أنفسهم إلى ثلاث مجموعات، مجموعة
ذهبت إلى قناطر السبع، والثانية اتجهت نحو سويقة
اللاّلى، والأخيرة استقرت في الناصرية.

سند علي ابن السبع سنواتٍ رأسه إلى الحائط بعد أن
أحاطها بذراعيه، وقف خلفه خمسة من جيرانه في نفس
عمره ليلعبوا الغميضة، وتأكدوا أنه لا يرى، وعينيه مغلقتان،
انسحبوا من خلفه في خفةٍ، وابتساماتهم تبحث عن مكان
لتظهر منه خلف سحب الذباب، التي تغطي وجوههم،
أشاروا لبعضهم عن أماكن الاختباء الغير معهودة، قارب
علي أن يصل لرقم عشرة، لكن لم يمهله القدر أن يتمتع بأن
يمسك أحدًا من رفاقه، رفعته يد قوية من جلبابه القصير،
الذي يصل بالكاد لركبتيه، ثم قذفته في وسط الشارع،
طار في الهواء وارتطم بالأرض الصلبة، شعر الصغير ولأول
مرة بخشونة حياته القصيرة، عندما تحجر الهواء في رثيته،
حاول أن يتنفس، ولكنه لم يستطع، ركلة أخرى كانت كافية

بارتطامه من جديدٍ بالحائط المقابل، حيث كان يلعب من ثوانٍ، حشرجة قصيرة وبعض قطرات الدم ثم انتهى الأمر. ازدحمت الشوارع والدروب والعطف بالجنود، هجوم مباغت بسيط، يعادل مقدار بساطة أهل المكان، دقائق قليلة جردت أهل الشارع من بيوتهم، حوّلوا إلى أوكار، أكلوا خزينهم، خربوا أثاث بيوتهم، حرقوا أبسطتهم وأثاثهم بنيران نارجيلتهم، بيوت لم يدخلها الخمر في يومٍ، وأصبحت مرتعًا للفساد وبؤرًا للذيلة، عادت خمارات خاصة بجنود فقدوا شرفهم منذ أيام في النجيلة.

اعتقد الأهالي أنّ هذا لن يستمر، طال تشردهم في الشوارع، حتى اجتمعوا ذات يوم محاولين إيجاد مخرج لأزمتهم، وقف أبو علي شهيد الغميضة يطالب بالثأر، مقترحًا هجومًا مفاجئًا على الذين احتلوا بيوتهم، وأن يذبخوا من يقع تحت أيديهم، وأن لا يكفوا عن ملاحقة من يفرّ منهم، فصوت صغيره ما زال يصرخ في وسط الشارع طوال الوقت ويؤرق منامه.

لم يجد غضب الأب المكلوم ردّ فعلٍ يناسب حزنه، ترك المسجد ورحل يلحق جراحه مسربلاً باليأس، ما أصعب أن يكفئك الخذلان، ظهر مكسورًا، بأكتافٍ متهدلةٍ ومفاصلٍ متجمدةٍ، وعقل شارد متيبس، الحياة الآن لم تعد

تعني شيئاً، والموت أمنية ليست صعبة المنال، مجرد سكين حادٍ، والظلام قادر على ستره، رأى أنّ ركن الجامع الشرقي المحصور بين حائط القبلة، والمئذنة مناسب تمامًا للاختفاء، طعنات خارقة كافية بقتل من سيمرّ من هؤلاء القتلة. وفي الصباح وجدوا جثة الأب ممزقة بجوار المسجد، ذهب يؤنس وحدة ابنه في البرزخ، سيقدم له اعتذارًا مهوّرًا بطعنات تملأ جسدًا، ورأسٍ مقطوعٍ معلقٍ على مدخل الشارع، ألحق العار بأهل الحي دون قصد منه، وهم من فقدوا كرامتهم دون وعي منهم، حين فضلوا التفاوض مع الخنازير على أن يثوروا عليهم.

توجه وفدٌ من كبار أهل الحي ليتفاوض مع الأوباش محتلي المنازل، لقاءات مكررة في كل بيت، مقابلات سمجة تبدأ معظمها برفض دخول الوفد إلى المنزل، وتنتهي دائمًا بصراخ بارد يخرج من حلق تضح برائحة الخمر:

« أنتم نائمون في بيوتكم كالنساء، ونحن ساهرون نحميكم، لولانا ما عشتم في أمان، ألا نستحق بعضًا من الراحة؟ ألا يجب أن تضحوا بعض الشيء؟ إلى هذه الدرجة لا تقدرون تضحياتنا؟ لن نرحل من هنا سريعًا وعليكم التأقلم مع هذا الوضع، لا داعي مرة أخرى لمحاولاتكم الساذجة

للتحرش بنا، لقد رأيتم نتيجة تهور ذلك المجنون، لن نحذر ولن نهدد، سننفذ دون أيّ سابق إنذار، والآن اتركونا فنحن نحتاج للراحة.»

هكذا دائمًا تنتهي المقابلات بين الوفد وبين غاصبي البيوت، شتائم لا تنتهي حتى بعد مغادرتهم، وفي عدة مرات قاموا بكسر أنف أحد رجال الوفد، بعد لكمة قوية من يد جندي ثمل، لم يُجدِ التفاوض معهم، بل منحهم فرصة أكبر لتثبيت إقامتهم في البيوت، وحجة لمضايقتهم أكثر، وفرصة للتحرش بنسائهم وبناتهم وجواريتهم، تساءلوا:

« هل كان والد علي على حق؟ يبدو أنهم فهموا ذلك متأخرًا، إذا الثورة هي الحل.»

الفتوات هم أهل الخبرة والدراية بهذا الأمر، سيقودون المعركة ضد غزاة البيوت، جمعوا رجالهم والمتطوعين من شباب ورجال الحي، قسّموا أنفسهم لفرق صغيرة، هجوم مفاجئ على كل البيوت في وقتٍ واحدٍ كافٍ للفتك بمن في الداخل، وسيكون الثلث الثاني من الليل أفضل توقيت للبدء، التجمع دون جلبية والمباغطة والمفاجأة هما عنصرا النصر.

كل شيء مجهز، سكاكين تم شحذها عند السنّانين،
عصى غليظة دقّ فيها النجارون مسامير حادة حتى فروع
الأشجار القوية والمرنة قطعوها وديبوا أطرافها، الكل مسلح
وفي انتظار ستر الليل وأوامر الفتوات.

في عصر ذاك اليوم ودون أيّ مقدمات غادر المحتلون
البيوت، حملوا ما تبقى من أسلحتهم بعد معركتهم الأخيرة
ورحلوا، ظنّ الأهالي بأن أحدًا وشى بهم، انقسموا إلى
فريقيين الأول يؤكّد أن أخبار استعدادهم لهجوم اللّيلة
وصلت لمسامع الهاربين، فقرررو الفرار خوفًا على حياتهم،
الثاني لم يمانع من صحة فرضية وصول الخبر، لكن رحيلهم
مجرد خدعة وسيعاودون الهجوم مرة أخرى؛ ولهذا لن
يتخلوا عن التيقظ والاستعداد.

عادت النساء للبيوت، كل شيء حُرب، بذلن الكثير من
الجهد ليزلن كل هذه الأوساخ، التي تركها الملاعين، انشغل
الرجال في مناقشة الأمر، جلسوا في حلقات يتدارسون
كيفية الدفاع عن مناطقهم إذا ما عاد الأوغاد مرة أخرى.

أوامر مشددة من الباشا هي السر وراء نزوح الجنود
ومغادرتهم، يبدو أن الأمر جلل فَهزيمتهم السابقة لا
تعني أنهم قد انتهوا، ما هي إلا مجرد خسارة في معركة
واحدة والمعارك كثيرة، سيطفئون نار حقدهم بدماء

الألفي وجنوده، سيدفنونهم أحياء، وتتزين بوابات القاهرة
برؤوسهم عمّا قريب.

(26)

المحرقة

لم يفاجأ الألفي بالخبر، كل ما كان عليه هو أن يعيد حساباته فقط، لا أمل في هؤلاء الأمراء، يخاطبون قبودان باشا ويرسلون له الهدايا، خيول وعبيد وطواشية وسكر، يرفضون دعمه ليقودهم ويحكم باسمهم، يزاخموه في رغبته، ويحقدون عليه، ويعترضون طريقه، ولا يعون أن كل ذلك لن يصبّ في مصلحتهم دون دعم الإنجليز لن يصل للحكم حتى لو وقف كل المماليك خلفه، لا داعي لاستمرار الحصار، الذي ضربه حول دمنهور إذًا، يعود أدراجه ويعاود الهجوم عندما تصل تجريدة حلفائه.

وقف أحمد يراقب عناصر الجيش وهم يصطفون في صفوف منتظمة، مقابض سيوفهم البراقة تلمع تحت أشعة شمس الصباح، النشاط بادٍ على محياهم، والثقة تلو رؤوسهم، وكزه عُكرش برفق لينبته لوجوده، التفت نحوه ، بادره البدين بإلقاء التحية، لم يعطه

فرصة للرد، وسأله وهو يشير نحو أمير القوات:

- ألا ترى أن وجهه شاحب ويعاني كثيراً؟

- أراهم كلهم في كامل صحتهم والعافية والنشاط.

- انظر للألفي بك ودقق النظر، يبدو باهت اللون، شاحب الوجه، وعلى جسمه يظهر الوهن.

- ربما لم ينم جيداً فقط.

وصلت إلى مسامعهم دقات الطبول رتيبة بطيئة، انتبه الجنود ونفخوا صدورهم، واعتدلوا في جلساتهم فوق ظهور خيولهم، تعالت الدقات وأسرعت، تحرك الجيش في نظام جادٍ، اقشعر بدن أحمد، وتبسم عُكرش في خبث وهو يتأمل قائد الجيش ينكز حصانه بمهمازه الذهبي لبدأوا مسيرة العودة نحو الجنوب.

كانت الكآبة هي رفيق البك طوال الطريق، يمتلك جيشاً أقوى من هذا الألباني، الذي ثبته قبودان باشا على حكم المحروسة بمساعدة بعض الأراذل، الذين يسمون أنفسهم مشايخ الأزهر، يلعبون على كل الحبال، ويدينون بالولاء لمن يعتلي العرش، وينعمون بالخير الوفير، ويجتمعون مع الحاكم ليدافعوا عن حقوق البسطاء، ينتهي اجتماعهم بحصولهم على مميزات أكثر أو هبات أو منح، وبعض المسكنات عن الصبر، الذي ليس له ثواب إلا الجنة، يلقونها في خطبهم من فوق منابرهم، فربما لو ناصروه لتغيّر رأيه.

الآن يساعدون هذا التركي، يجمعون له السلف من أغنياء القوم، وغداً سيجبونها من الفقراء، سيتخلص منهم جميعاً يوماً ما، وسيحاصر القاهرة ويقتحمها، سيوصي رجاله أن يقتلوا هؤلاء الأفاقين أينما وجدوهم، سينشأ جيلٌ جديدٌ يدين له هو وحده بالولاء، عليه التحلي بالصبر والمثابرة وتحمل هذا الألم، الذي يقطع في أحشائه.

لم يكن القائد وحده من يعاني من الاكتئاب، فطباخه الماهر له منه نصيب، فهو بعيد عن عائلته منذ فترة طويلة، لا يعرفون عنه ولا يعرف عنهم شيئاً، اختفى عنهم واختفوا عنه، حتى أبوه لا يسمع عنه، آخر لقاء جمعهم كان وداعه لهم قبل رحلتهم المشؤومة إلى السيد البدوي، ذهب كعادته إلى عمله في مصنع من مصانع السكر، ألم يكتشف غيابهم حتى الآن؟ هل غادر مقبل الحارة، وأصبح اختفاؤهم سرّاً لن ينكشف؟

نظر عُكرش من طرفٍ خفيٍّ نحو أحمد، كان نائماً خلف وعاء طبخ نحاسي كبير، لاحظ القلق الذي يعتري زميله، نظر نحو الأفق حيث بداية الجيش، وجدّه بعيداً ولا يظهر منه إلا أطراف صواري الأعلام المدببة تلمع في شمس الظهيرة الحارة، اقترب من رفيقه على عربة الكارو، التي تحمل بعض أدوات الطهي، وسأله بصوت هامسٍ:

- هل تعتقد أن الباشا يستطيع أن يهزم هذا الجيش الجرار؟

لم يُجِبْ أحمد سؤال هذا السمين، الذي يشاركه في سفره، كما يشاركه في الخيمة، التي ينام فيها؛ ربما خاف أن يجيب، أو أنه لم ينتبه للكلامه، أعاد عُكرش السؤال مرة أخرى بعد أن وضع يده على كتف الغارق في الحزن، التفت نحوه مدعورًا، ضحك مساعده، وأعاد السؤال للمرة الثالثة، نظر أحمد نحو الأفق محاولاً أن يرى مقدمة الجيش، أجاب بعد أن فشل في رؤية أوله:

- لم أر جيشًا في مثل هذا العدد، والتنظيم، والتسليح!

- لكن الباشا سينتصر.

- وهل انتصر الباشا من قبل؟ لا لم يحدث في كل المعارك التي عاينتها من قبل، حتى العثمانيون لم ينتصروا عليه مطلقًا، وتجريدة الحمير خير مثال على هذا، إنه الشيطان من يلهمه ويكيد معه.

- الشيطان هو الباشا، وهو من سينتصر هذه المرة، صدقني.

- هل هذا ما تتمناه؟

- هذا ما أتيت أنت من أجله.

بهت من إجابة هذا السمين، الذي أخذ يهتزّ من الضحك، امتنع وجهه، حتمًا هذه هي نهايته. لم يفكر كيف كشفه هذا الذي تطلّ من عينيه كلّ علامات الغباء، ما شغل تفكيره هي الطريقة التي سيبتكرونها لقتله، هل الخازوق؟ أم التنصيص؟ وربما يجدون طرقًا

جديدة حتى ينهون بها على حياته، اقترب عُكرش منه أكثر حتى التصق به، أمسك أذنه وهمس:

- لا تقلق، عزّ الدين ينتظرنا، لقد أتممنا العملية بنجاح وسنهرب قبل أن يلتقوا بجيش الباشا.

لم يفهم في البداية، أو لم يتصور أو يعي أنه كان طوال الوقت مراقبًا، لم يدُر بخلده أن هذا المعتوه عين من عيون الباشا عليه! كيف خدعه وخدعهم طوال هذه المدة؟ كيف تمكن من إدعاء الغباء بهذه الطريقة المتقنة؟ وكيف وصله الأخبار وكيف يوصلها؟ هل هو من سرق زجاجة السم، واستخدمها بدلاً منه؟ هل يعلم أنه من قتل شيروان؟ هل له علاقة بمقبل؟ هل يعلم أين أمه وأخته وخالته وحبيبته؟ عشرات من الأسئلة طافت في رأسه، انسحب عُكرش إلى مكانه خلف الوعاء الكبير، وراح في نوم عميق، أو هكذا تظاهر، على حين جلس أحمد مهمومًا يبحث عن إجابات لأسئلته الكثيرة، أضناه البحث ولا إجابات، بل إنَّ مزيدًا من التساؤلات أخذت تكتظ في رأسه.

تأخرت العربة المقلدة لأحمد وعُكرش، حتى أصبحت تدريجيًا في آخر الصف، نظر العرجي، الذي يقودها، وأشار لصاحب الكرش برأسه، سحب أحمد من يديه وقفزا، جدّ العرجي في التقدم مرة أخرى، اختبأ الزميلان لبعض الوقت تحت ظلّ شجرة، أخرج السمين من بين طيات ملابسه بعض الخبز، والغموس وأخذ في

ازداده، عرض على مرافقه أن يشاركه؛ رفض لأنه لا يشعر بالجوع، كل ما يشعر به الآن هو مزيج من القلق والتوتر، والخوف والتوجس. واصل الجيش المنظم تقدمه، تعالت دقات الطبول على مشارف الجيزة، لتبثّ الرعب في جنود الباشا، الذين اختبأوا خائفين مكتفين بمراقبة هذا الجيش الأسطوري يمر من أمامهم، حتى الباشا فعل كما فعل جنوده، راقبه يمزّ وتتبعه بنظارته المعظمة، حتى اختفى عن نظريه، تهلل وجهه، واحتفل بهروب الألفي وجنوده، هكذا أشاع وأراد الناس أن تفهم، وهكذا صدق أحمد، عندما وصل مع عُكرش مكان الاحتفال، لكنّ الوحيد الذي لم يقتنع بذلك هو البدين، الذي حاول أن يفهم زميله أنهم لم يتناوشوا، ولا يوجد قتيل واحد، ولا جريح، ومع ذلك أراد أحمد التصديق لتنتهي معاناته، ويلتئم شمل عائلته من جديد.

اعتصر الألم بطن الألفي، فلم يعد يحتمل، سأل عن اسم القرية، التي كادوا أن يدخلوها، فأخبروه أنّها المحرقة، سويعاتٍ قليلة ويكونوا في دهشور، لم يتفاءل من اسمها، لكن الوجد شديد، ولا يستطيع أن يتحرك خطوة واحدة، نصبوا له خيمة صغيرة ليستريح فيها هذه الليلة، السم يجري في عروقه، يحرقها ويقطع في أمعائه بنصاله الحادة دون رحمة، العرق يتصبب منه باردًا مؤلمًا يحمل رائحة الموت، ظلّ المنية يرمي بأطرافه على عينيه، نظر خارج الخيمة من بين رجاله، الليل حلّ وأحكم سيطرته على المكان،

الحسرة تشجعه على تقبل الموت بصدر رحبٍ، بصوت متعب
أرهقته حوادث الزمن خرجت الكلمات ملوثة بدمائه:

- يا مصر انظري إلى أولادك وهم حولك مشتتين متباعدين
مشردين، وقد استوطنك أجلاف الأتراك واليهود وأراذل الأرناؤود،
وصاروا يقبضون خراجك، ويحاربون أولادك، ويقاتلون أبطالك،
ويقاومون فرسانك، ويهدمون دورك، ويسكنون قصورك، ويفسقون
بولدانك، وحوورك، ويطمسون بهجتك ونورك.

مسح أحد تلاميذه الدم عن فم ولحية أستاذه، شبح الموت
أحكم قبضته على الذي لم يقهر، أو يستسلم ذات يوم، استجمع ما
تبقى من قواه، أبعده تلميذه وعاود الكلام مرة أخرى:

- قُضي الأمر وخُلصت مصر لمحمد علي، وجرى حكمه على
الممالك المصرية، فما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم.

أنطفأ النور في عينيه التي أرعبت من قبل العربان والأتراك
والفرنسيين، تدفق الدم من فمه وأنفه، توقف الصدر عن الصعود
والهبوط، اكتفى القلب من الحياة وامتنع عن النبض، مالت رأسه
إلى جانبه، مات الألفي.

(27)

الأخرس

”من أجاد الحيلة لم يعدم الوسيلة« هكذا حدّث محمد علي نفسه، نقص المال مشكلة تؤرقه، وعليه أن يُسرف في بعض نفقاته، العربان لا يستقرون، والباب العالي لا يشبع، ومرزقة الأرنأؤود لا يكفون عن المطالبة بالرواتب والمكافآت، واستمالة المماليك مكلفة للغاية، تنقص من دخله، لو ثار العربان عليه، وغضب الباب العالي منه، وانقلب الجيش ضده، واتحد بواقي المماليك، وتآكل ظهيره الشعبي المرهق بالضرائب؛ فزوال ملكه هو النهاية الحتمية، وعليه أن يتجنب كل هذا، ضجّ الملتزمون من طلباته، ولولا توسط الشيخ عمر النقيب وزملائه، لما وُفِّقَ في تحصيل جبايات العام المقبل بشروط أئفَّقَ عليها، صحيح أنهم معفون من الضرائب، لكنهم صدَّقوا أنه في حاجة ماسة لها، فقبلوا ذلك مرغمين، هم من اختاروه وعليهم مساندته حتى النهاية.

حضر مع التجربة الألبانية هنا على مضض، ترك زوجته وأبناءه في وطنه، دون نقود تُذكر، وتحمل مشاق السفر، لم يصل لسدة العرش بسهولة، عمل الكثير والكثير حتى يصل إلى ما هو عليه الآن، تحالف مع «البرديسي» ذات يوم، وجعله أخًا له، وأحكم سيطرته عليه، حاربا «خسرو» الأعرج معًا، انتصرا عليه، وسجنانه في القلعة، قاتلا خليفة «خسرو» المرسل من الباب العالي، وبالرغم من أن الأخير نجح في استمالة بعض المماليك إليه بفرمانات من السلطان، لكن محمد علي والبرديسي لن يضحيا بكل معاناتهما من أجل هذا الوالي الجديد، قتلوا «علي باشا بوغول» ولم تبق هناك قوة في الإقليم تضاهي قوة الألباني والبرديسي.

يوم أن وصل الفرمان العالي بتوليته ولاية مصر علم اليقين بأن هذا لن يطول، سيسعى البلاط السلطاني لعزله أو نقله، وهذا لا يحتاج إلى ذكاء خارق حتى يصل لهذه النتيجة، تم اختياره من قبل علماء ومشايخ الإقليم وهي سابقة لا يريد لها السلطان أن تتكرر بالتأكيد، ولكي يثبت أركان حكمه؛ عليه أن يقضي على المماليك، وهذا لن يرضي الإنجليز دون شك، وإذا زاد من ضغطه على الشعب سيقف ضده المشايخ والأعيان، وهذا ما لا يتمناه مطلقًا، كل ما سبق في كفي، والمشايخ في كف آخر الآن، قضى على الألفي رجل إنجلترا المدلل دون عناء، عندما نجح مبعوثه في سمّه، وهكذا انتهت آمال حلفائه الإنجليز ولو مؤقتًا، وهو يعرف علاج البلاط العثماني، الكثير من الأموال والهدايا، وبالتالي يأمن مكرهم، لكن كيف يحصل عليها الآن؟

عليه أن يتفنن في تحصيل ما يحتاجه من المال، هو يعلم جيداً أن الفلاحين - هم المورد الأول والأكبر لخزائنه - لا يجدون ما يسد رمقهم، والثجار يعانون من حالة الكساد ومن الضرائب والجمارك، التي أثقلت كاهلهم، عليه أن يبتكر الجديد، والحيل كثيرة، وهو المبدع في ذلك بشهادة كل من عامله، حتماً سيجد الطريقة، لكن على البصائين أن يتفانوا في عملهم، وهو يعلق عليهم الآمال، فبال تأكيد هم لن يخذلوه.

طلب كبير البصائين المثل بين يديه، تبسم الباشا في حُبث وهو يشير لحارسه بأن يسمح له، انحنى الرجل عندما دلف من الباب، حكَّ الباشا لحيته وضيق عينيه الزرقاوين وهو يردّ سلام البصاص الأكبر، وبادره بالحديث:

- هات ما عندك يا رجل.

- قبضنا على بعض التجار النصارى يا جناب الباشا.

- ماذا فعلوا لتقبض عليهم؟

- رصدنا قافلة مُحَمَّلة بثياب جنود خارجة من القاهرة.

- لا بد أنها كانت متجهة لأمرء المماليك في الصعيد.

- نعم يا باشا.

- وكيف خرجت وأنا منعتُ هذا من قبل؟

- قبضنا على الحَمَّالين، ومنهم عرفنا من هم أصحاب البضاعة.

- من هم؟ وأين البضاعة؟

- تجار مسيحيون قبضنا عليهم، والبضاعة محجوزة يا أفندينا،
بعد أن عددناها وسلمناها لأحد كبار الموظفين، ووقع على إيصال
بذلك.

- عظيم، عظيم، لكن لا بد أن هناك من سَهَّلَ لهؤلاء التجار
مهمتهم.

- نعم، هناك من سَهَّلَ لهم ذلك مقابل براطيل كثيرة.

- من هذا الملعون؟

- إنه الباشا «إبراهيم آغا» يا جناب الوالي.

وقف على قدميه، رجاله يخونونه من أجل حفنة من الدنانير،
أخذ نَفْسًا عميقًا ليسيطر على غضبه، الغضب يعمي العقول،
ويجعلها تتعطل، وهو في حاجة لأن يستفيد منه الآن، تحسَّسَ
سيفه وأمسك مقبضه، لو أمر بقتل هذا الإبراهيم ما لامه أحد،
لكن ماذا سيستفيد من هذا؟ عليه أن يكون أكثر حكمة، ترك
سيفه يهتزّ بجانبه، ونظر نحو بَصَّاصه، فَكَّرَ لبرهة قبل أن يأمره:

- اقبضوا عليه، وضعوه مع أعتى المجرمين، لا معاملة خاصة له، امنعوا عنه أيّة زيارة، جردوه من رتبه قبل أن ترموه في السجن، لا يقابل أحدًا أو يرأسل أحدًا، خاصةً هؤلاء التجار الأقباط، هيّا نفذ على وجه السرعة والدقة.

انحنى كبير البصاين حتى خرج من الباب، حَكَّ الباشا يديه في طمع، فهكذا سيحصل النقود، ودون عناء أو أن يضجر أحد، بل سيشكره الجميع على ذلك.

مهما كان المرجل ساخنًا، على الصياد الماهر أن يتحلّى بالصبر والهدوء، ما أن تقترب الفريسة من الشّرك كل ما عليه هو الثبات والبقاء صامتًا دون حراك، هكذا نفذ محمد علي خطته ضد إبراهيم أغا، الذي مرت عليه أيام السجن مريرة وكئيبة، خلف حوائط السجن الباردة، وعي معنى المثل الشعبي «أن يرى النجوم في عزّ الظهر»، وحنضل الأخرس كفيل بأن يطبق هذا المثل حرفيًا، غليظ القلب والملامح، ضخم الجثة، صدره مملوءٌ بالعضلات البارزة، ذراعاه لا يصلحان إلا للفتك، كفاه وقدماه كبيرتان، كان عبدًا عند أحد الأتراك، ارتكب جرمًا ما لا يعرفه أحد، فقطع التركي لسانه، هرب قبل أن يتمكن من قطع طرف آخر، قبضوا عليه بعد مطاردات طويلة وعنيفة، أودعوه السجن ليقتضي بقية حياته هناك، بعد أن مات سيده وعادت عائلته لبلادهم هربًا من الفرنسيين.

كل شيء فيه كبير وضخم - هكذا وصفه إبراهيم آغا- سخره العملاق لخدمته منذ أن دخل السجن، طلباته لا تنتهي إلى أن وصل الأمر أن يطلبه ليطأه، حيك الشيطان حيكته وكل شيء مُجهز لأن يهتك عرض الباشا السابق، ولولا تدخل حراس السجن في الوقت المناسب لفعل فعلته.

قيده الحراس وأنقذوا سجين أفندينا من براثن غاصبه، لو لم يقضِ حنضل وقتًا طويلاً في استعراض فعلته أمام أعوانه في السجن لقضى وطره من فريسته، لكنه القدر منعه من الوصول لهدفه، قرار بالإفراج عن ضحيته جعله يبحث بين السجناء عن البديل.

إفراج مشروط بعد شفاعة من امرأة مقربة لنائب السلطان، ولكل شيء ثمن فدفع مصالحة كبيرة ليعفو عنه، ويخرج من السجن ويعود لمنصبه مرة أخرى، والموافقة أكيدة، ولو طلب ضعف ما يرنو إليه، شبكة الصياد بها أكثر من سمكة، أطلق سراح واحد، وعلى الباقي أن يدفعوا ثمن حريتهم، وهكذا تم الاتفاق مع التجار، سيصادر الباشا بضائعهم، وهذا أمر اعتيادي، وعليهم أن يدفعوا الأموال وإلا بقوا في محبسهم إلى أن يقضي الله أمره، هكذا وببساطة كانت رسالته إليهم، دفعوا المصالحة وتنفسوا هواء الحرية، بعد أن تعلموا درسًا قاسيًا، لكن شهية الحاكم لم تكتفِ بعد، ولم لا وهناك فرصة أن يقتنص بعض الأموال، تهمة

صغيرة لمن حُجِزت عنده البضاعة بالاختلاس كفيلة بأن ترميه
تحت يد الأخرس خلف أسوار السجن، والحل أصبح معروفًا، مبلغ
مالي ضخم لخزينة الباشا الخاصة وإلا كان مصيره في يد العملاق
الشبق.

(28)

الشيخ

نجوم ثمانية خشبية من أحجام مختلفة، تزين واجهة عالية من ثلاثة أدوار، متشابكة معًا بطُرق معقدة، تنم عن فنان صبور، عشرات الألوف من قطع خشبية صغيرة جُمعت معًا بدقة متناهية؛ لتكون مشربيات أرابيسك، تُدخل الضوء والهواء العليل لغرف الدورين الثاني والثالث، وتمنع عيون المتلصقين من رؤية من في الداخل، حديقة غنّاء واسعة مترامية الأطراف، عُلق على أشجارها مصابيح زيتية، تشق ظلام الأزبكية دون خجل.

في صالة داخلية كبيرة بالدور الأرضي، لها سقف خشبي نُحتت عليه بعض آيات القرآن الكريم، ستائر خضراء غطت نوافذ الصالة في بهاء، يصل صوت خرير النافورة الكبيرة بالخارج، متناغمًا مع صمت الليل وجلالة المكان وجماله، في صدر الصالة على كنية عالية منجدة بحواشي حريرية، جلس الشيخ السادات بملابسه

الأزهرية وعمامته الكبيرة، ولحيته الرمادية، كملك على عرشه، يفكر ملياً في أمر غامض، لا يعرف من حوله ما هو، هل هو شيء خاص به؟ أم يخص الجمع، الذي اجتمع في داره العامرة؟

في يمين القاعة ويسارها صُفَّت أرائك واسعة، مفروشة بسجاد صوفي ناعم، يختلف في حجمه، وألوانه عن التي بسطت على أرضية المكان، تفرق عليهم الشيخ البكري، وكبار تجار القاهرة وأعيانها، على يمين الشيخ السادات، وليس ببعيدٍ عنه، تربع الشيخ الشرقاوي ممسكاً فنجاناً من القرفة الممزوج بالزنجبيل الساخن، يرشف منه رشقات بصوت مسموع، ويمصمص شفثيه بعد كل رشفة، على يسار صاحب البيت أريكة مماثلة للتي يجلس عليها شارب القرفة؛ تُركت فارغة في انتظار الشخص الأخير، الذي لم يحضر بعد.

قطع صوت الشيخ البكري الصمت، الذي لم يخلُ إلا من مصمصمة الشيخ الشرقاوي لشفثيه:

- ثرى ماذا سيفعل أفندينا بجرجس الجواهرجي؟

رد أحد التجار وهو يلوك قطعة من حلوى الزلابية:

- تهمة اختلاس، سمعت أنه دفع أربعة آلاف وخمسمائة فرانك كمصالحة.

تدخل تاجر آخر، بعد أن وضع بعضًا من النشوق في أنفه،
وعطس عطسة قوية، أعاد علبة النشوق الفضية لجيبه، وهو يشهق
من العجب:

- يا له من مبلغ ضخم!

- نعم، لم يكتفِ بهذا، بل إنه فرض ضرائب كبيرة على التجار
المسيحيين.

- لا يهم، فهم معهم من الثروات ما يكفي لأن يدفعوا أضعاف
هذه الضرائب.

لم يتدخل الشيوخ في الحوار الدائر بين التجار، ظلوا ملتزمين
الصمت، وشرب القرفة، ومضغ الزلابية وبلعها، ولكن هذا لم يمنهم
مطلقًا من الإنصات باهتمام لكل كلمة في الحديث الدائر أمامهم،
هب الشيخ السادات واقفًا، صمت الجميع، ووقفوا ونظروا نحو
باب الصالة، واندفعوا مرحبين بوصول الشيخ عمر مكرم، بادرمهم
بالسلام، فردوا عليه بصوت مرتفع، وسارعوا إلى مصافحته، أول من
صافحه هو الشيخ السادات، صاحب المكان، ثم الشيخ الشرقاوي،
وبعده الشيخ البكري، ثم كبار تجار القاهرة ووجهائها، حاول بعضهم
أن يقبّل يديه، لكنه سحبها برفق وتواضع، قاده المضيف لمكانه،
وجلس بعد أن سمى الله، والبشر يملأ المكان بوصول نقيب
الأشراف.

بإشارة صغيرة من الشيخ السادات، تقدم خادم بصينية نحاسية، حملها بين يديه، عليها كوب زجاجي يتصاعد من فوهته البخار، محملاً برائحة اليانسون الذكية، وقف أمام الشيخ عمر، وهو لا يصدق أنه يراه رؤى العين، تناول الشيخ الكوب، وربت على يد الخادم في رفقٍ، كاد أن يُغمى عليه من الفرحة، حفيد رسول الله لمسه! انسحب خارج القاعة فخورًا بالبركة، التي حلّت عليه في هذه الليلة المباركة، وهو يكاد أن يطير من فرط السعادة.

ترحيب حارٍّ عمّ المكان بنقيب الأشراف، الكل سعيد، أو على الأقل يُظهِر ذلك، انتهى السيد عمر مكرم من كوب اليانسون، واحتفظ به في يديه، رغم حرارة اللقاء، لكن هناك برودة ما شعر بها تسري في جسده، تمسك بالكوب لعلّ حرارته تتغلب على برودة جسمه الغامضة، بادر أحد التجار وسأل آخر القادمين:

- هل أخذ أفندينا إذنكم على الضرائب الجديدة؟

تنحى السيد عمر ليعطي نفسه وقتًا أطول في التفكير للإجابة على السؤال:

- في الواقع لم يستشر أحدًا فيما فعل، لكن الأمر جدُّ خطير، يحتاج أفندينا للكثير من النقود هذه الأيام.

سأل التاجر بتهكم واضح في ثنايا كلامه:

- هل هناك مشاريع جديدة يخطط لإنشائها؟

- لا، لكن هناك الكثير من الأعداء يحيطون به، ويتدربون بالبلاد.

كانت إجابة الشريف حاسمة وحادة، وإن كانت مغلفة بابتسامة تكسوها السخرية، أكمل كلامه بعد أن اختفت الحدة والسخرية من حديثه، ليحل محلها مسحة من الغضب، وإن كانت غير واضحة:

- تتذكرون يا سادة كيف ولماذا ومن اختار محمد علي باشا؟

ابتسم الشيخ السادات قبل أن يُجيب، فهو أكثر الموجودين دراية بطباع السائل، قائلاً:

- كلنا يعلم من قام بهذا يا سيد عمر.

- أريد أن أسمع يا شيخ السادات، قبل أن نتناقش فيما هو آتٍ.

- ما العائد من ذلك يا سيادة النقيب؟

- نتذكّر ونذكّر، والذكرى تنفع المؤمنين.

انفتحت شهية الموجودين للحديث عن ذكريات أيام كانت صعبة ومؤلمة وعظيمة، حقاً إن المجد يُولد من رحم المعاناة، تحمس الشيخ البكري للكلام :

- لم يكن اختياره مصادفةً، لقد كان عملاً ملحماً، لم يسع يوماً للحكم، بل على العكس هو دائم الهروب منه.

تدخل أحد كبار التجار وهو ينظر نحو نقطة مجهولة:

- وضع البرديسي في المقدمة رغم أنه الأقوى والأجدر، حقاً إنه زاهد في الحكم.

تذكر الشيخ السادات شيئاً مهماً عندما ذكر اسم الأمير البرديسي:

- لا تغفلوا دفاعه عنا عندما هاجمنا البرديسي، هل علمتم بمرضه؟

اعتدل السيد عمر مكرم في جلسته:

- يقولون إنه مصاب بالحمى الصفراء، عافانا وعافاكم الله.

أمن الشيخ السادات على دعاء السيد عمر وأكمل حديثه:

- آمين، كان موقفاً عظيماً عندما منع جنوده من العبث بمقدرات المساكين، وحرابه ضد ولاة الأتراك الظالمين، هل تتذكرون ما فعل الدلهيون بالبلاد والعباد؟

تنهد الشيخ الشرقاوي:

- لا تُذكّرنا بهؤلاء المجانين، فسدوا وأفسدوا أمّ الدنيا، حتى كادت أن تخرب على أيديهم.

ضحكة قصيرة سبقت رد السيد عمر:

- صدقت عندما وصفتهم بالمجانين، لكنهم شربوا المرارة على يد أولاد أمّ الدنيا.

ضحك الجميع على تعليق السيد عمر مكرم، لكنهم عادوا للصمت عندما أكمل حديثه بجديّة:

- أحب أن أضيف، نحن من اختاره، بل وألح عليه ليقبل، بالطبع وصلتكم رسالة الأمير الألفي كما وصلتني؟

هز الجميع رأسه بالموافقة، واصل نقيب الأشراف حديثه:

- لم يكن من الممكن أن نقف بجوار هذا المستبد، إن اسمه فقط يوحى بالهلع الشديد عند المصريين، مغرور، وطماع، ومتغطرس، ولا يهتم بدماء المسلمين المسفوكة على يد أعوانه المجرمين...

قاطعته الشيخ الشرقاوي:

- عفواً سيد عمر، ماذا يجب أن نفعل؟ ندعم أفندينا رغم كل هذه الضرائب، التي أحنّت ظهور المصريين وكادت أن تقصمها؟

أثارت كلمة الضرائب التفكير عند بعض ضيوف السادات، صحيح أن الشيوخ لا يدفعون أي نوع من الضرائب أو الجمارك، أو أي التزامات مالية، من التي يعاني منها الشعب، رغم ثرواتهم الطائلة، التي جمعوها من التجارة ورواتب ومكافآت، ومِنح وهبات مادية وعينية، حقًا هم لا يعانون شظف العيش، الذي يعاني منه أغلبية الشعب، وبالطبع فكرة أن يشاركوهم هذا الشظف غير واردة، مهما كانت الظروف، لكنهم لن يصمتوا على هذه الأعباء التي يتحملها أهل البلاد.

وقف أحد التجار متحمسًا:

- يجب أن يصل لأفندينا أن الشعب لا يمكنه تحمل كل هذا العبء.

وقف بجواره تاجر آخر لا يقل حماسه عن زميله:

- نحن من يتحمل لعنات الشعب، يعتقدون بأننا نبالغ في الأسعار، رغم خسارتنا الكبيرة من عمليات السلب والنهب، إذا لم يكن قادرًا على نشر هيمنته وإقرار الأمن في أنحاء البلاد، والسيطرة عليها؛ ليذهب من حيث أتى.

خرج الكلام بثقة من فم الشيخ الشرقاوي:

- تجمّع الأهالي في الأزهر وهم ينتظرون نتائج هذا الاجتماع.

تحولت أنظار الجميع نحو السيد عمر مكرم، وبثقة كبيرة
خرجت الكلمات من فمه:

- نذهب لأفندينا ونطلعه على الأمر، وهو سيستجيب بكل تأكيد،
ولا تنسوا أننا وقفنا بجانبه لنثبتته في حكم مصر.

هكذا قرروا زيارة محمد علي باشا، لن تكون زيارة مفاجئة له،
هو على علم تام بما يحدث في الأزهر، وبعد أقل من ساعة من
انتهاء هذا الاجتماع سيكون عنده تقرير بكل حرف قيل فيه، عيونه
في كل مكان، والكثير يسعى للتقرب منه، يُقرب من سيساعده،
ويتخلص ممن سيقف في طريقه مهما كان مركزه، ولكل واحد
طريقة للتخلص منه.

(29)

رائحة الغضب

توسطت شمس القاهرة كبد السماء، أرسلت خناجرها الحادة، تخترق بأطرافها المدببة أجساد ضعيفة، أوهدنها الجوع، وهدها المرض؛ فأضحت خيالات تمشي على الأرض، تجمعوا معاً علَّهم يتمكنون من محاربة الفاقة أو مجابهة الظلم.

تقدم السيد عمر مكرم الرُّكْبَ على صهوة جواده، بجواره الشيخ السادات والشيخ الشرقاوي، وليس ببعيد عنهم الشيخ البكري، كبار شيوخ الأزهر وكبار التجار، وأعيان القاهرة خلفهم على بغالهم وحميرهم العالية في صفوف غير منتظمة، يتبعهم خلق كثير، تمازجت تكبيرات طلاب الأزهر، مع أهازيج أولاد البلد، مع صياح الفتوات على رجالهم في عشوائية بالغة، كان صوتهم كهزيم البحر يعلو، ويهبط دون توقف، تقدم الركب ببطء شديد حتى أوقفتهم متاريس، وقف خلفها حراس بيت

أفندينا، وقفوا مدججين بأسلحتهم، متحفزين لإشهار سيوفهم في وجه الزعماء ومَن خلفهم، على سطح المنزل لمعت البنادق في يد الجنود؛ مستعدين لإطلاق النار إذا ما تخطى أحد المتاريس، أو ظهرت في الأفق أيُّ محاولة للشغب، تعالت صيحات الغضب، لكنَّ إشارة من السيد عمر ألزمت الجميع الصمت.

تلبَّد الهواء بالقلق، حتى صار دخانًا كثيبًا يعلو الرؤوس، جفت الحلق وزاغت العيون، تسرب العرق من تحت الملابس، ورشح فوقها، فصار بقعًا واضحة تحت إبط ملابس كالحة، لا تقي من برد الشتاء، ولا قيظ يوم مثل هذا، تاريخ نائب السلطان الدموي في موطنه شاهد عليه، ولا يعرف عنه الكثير، لكن الشعور بالخطر لا يحتاج لمعرفة تاريخ.

بهدوءٍ تحدَّث السيد عمر مع قائد الحرس، كانت إشارات يده واضحة وتترجم ما يقال، هناك موعد مضروب مسبقًا مع أفندينا، وهو في انتظار السادة والمشايخ، سيسمح لهم بالدخول لكن بعد أن ينصرف الجمع، هكذا يمكن أن تفهم من إشارات وتعبيرات وجه قائد الحرس الصارمة، الذي وقف فاتحًا ما بين رجليه، قابضًا على سيفه مستعدًا لقتل كل من تسوّل له نفسه أن يتخطى الخط الوهمي، الذي وقف خلفه الزعماء.

استدار نقيب الأشراف، وبكلمات قليلة انسحب الركب إلى الخلف، بعد تدمير القليل من الفتوات، لكن ثقتهم في زعمائهم كافية بأن تجعلها اعتراضات مكتومة، تأكد الحرس من تفرُّق الخلق، وسمحوا لهم بالدخول على الفور، تقدم الوفد، على رأسهم السيد النقيب، وما إن رآه الباشا حتى وقف في استقباله، وعلى الفور اقتاده ليجلسه بجواره؛ تفرق المشايخ على مراتب متناثرة في بهو الصالة، في لمحة سريعة من عين خبير بطبائع البشر، تعرف الباشا على ما يدور في رأس المشايخ، يقرب له عمر مكرم، ونحن لا شيء يذكر، هذا ما استنتجه من نظراتهم، زاد الترحاب حفاوة بالنقيب، لتزداد العيون سعاَرًا.

كان الباشا على دراية بما أتوا من أجله، وإن تظاهر بعكس ذلك، واكتفى بالترحاب بهم وملاطفتهم، بعد فناجين القهوة تشاغل عنهم ببعض الأعمال، وبإعطاء أوامر لبعض الموجودين، أظهر التملل في جلسته، وكعادة النقيب أخذ بزمام المبادرة، تنحنح، التفت الجميع نحوه:

- قد لا تعلم فيما أتينا من أجله؟

هز الباشا رأسه نافيًا وهو يداعب لحيته في هدوءٍ، أكمل نقيب الأشراف حديثه:

- تعلم يا جناب الباشا حال البلاد والعباد جيدًا، التجار يئنون من الضرائب، التي أثقلت عاتقهم، ويعانون أشد المعاناة من نهب بضائعهم، وهي في طريقها إلى القاهرة، زاد الغلاء على الناس وقد ضجروا، والفلاحون لا حول لهم ولا قوة تحت سياط الملتزمين، والصعيد مجبورين على حكم المماليك وبطشهم.

توقف عن العبث بلحيته وبدأ كلامه:

- ولهذا تجمعتم في ساحة الأزهر؟

بدأ الشيخ بكري حديثه بصوت منخفضٍ وارتفع تدريجيًا:

- لا مكان لهم إلا هو، ولمن يشتكون إلا لنا بعد الله عزّ وجلّ؟

علق أفندينا نظره في سقف القاعة قبل أن يرد:

- تعلمون يا سادة أن الخطر محقق بنا من كل جانب، الإنجليز، المماليك، الفرنسيون، حتى الأتراك أصبحوا يمثلون خطرًا علينا جميعًا.

تعجب الشيخ السادات من ذِكر الأتراك في حديثه؛ فسأل مندهشًا:

- وما الخطر من الأتراك يا أفندينا، وأنتم نائب للسلطان
هنا؟ ومُعَيَّنٌ من قِبَلِهِ؟

- هذا هو مكمن الخطورة، عليكم وعليّ من قبلكم، وعلى
البلاد والعباد، هل تعتقدون أنّ السلطان والباب العالي راضٍ
عمّا فعلتموه؟ بالطبع لا، سيعودون لخلعي، ويأتي والٍ آخر
لينتقم منكم، تعرفون الامتيازات المقدمة لكم، لا ضرائب
على تجارتكم، مرتبات، هبات، ولا تنسوا أراضي (مسموح
للمشايع)، حتى أموال الوقف لا نحاسبكم عليها، كم مجملها؟
أو أين صُرِفَتْ؟ والٍ جديد، هل تفهمون معنى هذا؟ أتوقعون
ماذا سيفعل؟

هزت كلماته فرائص الشيوخ، فكل ما قاله صحيح، لو
تدخّل أحد في هذه الأمور؛ لفقدوا جزءًا كبيرًا من هيبتهم
ودخلهم، زلزلتهم كلمة الضرائب، يتاجرون في أشياء مختلفة
هم وزملاؤهم، ولا شيء عليهم، وهل حرّم الدين التجارة؟
وأحلّ الضرائب والمكوس؟

لم يهتم السيد عمر مكرم بالتهديد المغلّف بالنصح من
نائب السلطان، فكل ما يهمه هو أهل المحروسة المجتهدين
من غلاء الأسعار، والإتاوات التي تُجمع منهم في كل مناسبة،
لم يعد مستثنى من ذلك إلا الموت، الذي لم يُفرض عليه أيّ
جباية حتى الآن.

رد نقيب الأشراف بسرعة:

- نعم نعرف معنى هذا جيداً، سينقلونكم من هنا إلى أي ولاية أخرى، وسيأتي نائب جديد للسلطان، والله وحده يعلم، هل سيصلح حال البلاد على يديه، أم ستزداد سوءاً؟

- عن أيّ سوء تتحدث يا سيد عمر؟

- عن أحوال الفلاحين، لقد أصبحوا أقرب للرقيق، عن الملتزمين الذين دفعوا عن السنة القادمة مقدماً، عن التجار الذين تنهب تجارتهم بعد أن يدفعوا ضرائبها وجماركها، وإذا سلمت دفعوا ضرائبها مرة أخرى، عن الناس الذين لا يجدون كسرة خبز تقيم أودهم، لم نعد قادرين على تحمّل هذا.

عقد محمد علي بين حاجبيه، اشتعلت نظراته بغضب، حاول دفنها تحت كلماته، تنفس بعمق قبل أن يتحدث:

- أشتم رائحة الغضب في كلامك يا سيد عمر، اعقدوا المجالس، وأطلقوا التحذيرات كما تشاءون، سأصغي لها بكل اهتمام، ولن تمرّ مناسبة دون أن أراضيكم، لكنني لن أسمح بأيّ مظاهرة شعبية، بل وعلى أيّ تحريض على التمرد، أو إثارة للاضطراب الشعبي، أيّاً كان مصدرها، من جهة أخرى، فأنا لا أخاف مطلقاً من هذه المظاهر العابثة، فإذا ما قام الشعب بالتمرد، فلا أملك له إلا السيف والانتقام.

حديثه واضحُ الآن، وتهديده جليٌّ، لن يسمح لأحد مهما كان أن يقف في وجه طموحه، حتى لو كان السلطان نفسه، لقد وصل لعرش مصر، ولن يتخلى عنه إلا إذا تخلى كتفاه عن رقبتة، الطريق طويل والمتربصون كُثُر، والأعداء أكثر، وظهيره الشعبي يتآكل، عليه أن يحقق نصرًا بشكل ما ليستعيد ثقة زواره، وتخضع له البلاد كما يخطط وينوي.

(30)

جاشنكير

لم يتغير شيء منذ أن غادرها منذ عامين تقريبًا،
حارته القديمة، بيوتها المنخفضة، مداخلها المتواضعة،
أكوام القمامة في كل مكان، حشرات طنانة لا تكف عن
الطيران، أطفال شبه عراة يشاركون الأكوام المنتشرة في
ذبابها، تحولت وجوههم لساحات قتال لذباب يتنافس
على عيونهم دون هوادة، محال بأئسة، عربات يد صغيرة
يدفعها رجال تأكلوا من فعل الزمان، لا شيء استطاع
أن يفرض سيطرته على هذا المكان، مثلما فعل الفقر
والجهل والمرض.

لو قدّر لهؤلاء القوم أن يأكلوا ذات مرة من طعام
الألفي لتمردوا على حياتهم، رحب به الجيران ترحيبًا
حارًا، أسئلة تهطل عليه من أفواه تفوح منها رائحة

الجوع، أين كنت؟ لماذا كل هذا التأخير؟ أين أمك وأختك؟ ألا تدري ما حدث لأبيك؟ هل قتلوه كما قتلوا مقبل؟ سمعنا أنه في المارستان، هناك من يؤكد أن حريمك بيعوا في أحد بيوت اليسرجيات، لماذا أنت صامت هكذا؟ هل أكلت القطة لسانك؟

طاردته العيون وطاردته الأسئلة، عاد للحارة ليبحث عن إجابات ألغاز حيرته، وأرقتة لشهور طوال، لم يشف المكان غليله، فرّ منهم هائمًا على وجهه، يبحث عمّن فقدهم، قتلوا من سلّمه لهم، لن يكون من الصعب عليهم أن يؤكدوا جنون أبيه، ولا أن يتاجروا في باقي عائلته، لماذا لا يكون قد جنّ أبوه حقًا؟ لم يتحمل أن تختفي عائلته كلّها مرة واحدة ففقد عقله.

سيزور أباه عمّا قريب، لكن الآن عليه أن يستعد لمقابلة ولي النعم، عُكرش رتب لكل شيء، سيلتقي به بعد سويغات قليلة بالقرب من القلعة، ما زال أمامه متسع من الوقت ليشتري ملابس جديدة، سيشتري الخف الأحمر الفاقع، الذي حلم طوال حياته بأن يقتنيه، نعم وتلك العباءة البنية كما تمنى أن تلمس جلده ولو لساعة من الزمان، سيبدو مثل الأعيان في هذه الملابس، وعدوه بمكافأة كبيرة بعد أن ينهي مهمته، وها هي قد

انتهت، ربما اقتطع له قطعة أرض كبيرة، سيبنى هناك منزلاً ضخماً، لن يكف عن البحث عن عائلته، سيدفع ثمنهنّ مهماً كلفه الأمر، المال سيكون موجوداً، وهنّ لا يُقدّرن بمال.

لم يتعرف عليه عُكرش في البداية، هو أيضاً تعجب عندما رآه في مظهره الجديد، زالت الغباوة من عينيه، الجدّيّة تملأ محياه، حتى خطواته تبدل إيقاعها، تلعثم عندما أراد أن يناديه، خرج اسمه مقطّعا «عُ كرش»، ابتسامة باهتة مرت على شفتي الرجل، سرعان ما استبدل بها نظرة صارمة، وصوت معدني حاد وهو يحدثه:

- لا وجود لعُكرش بعد الآن.

- ما اسمك إذّا؟

- في عملنا الأسماء لا تهم.

- لماذا جندتموني في تلك المهمة، وكنت قادراً على

أدائها وحدك؟

ربت على كتفه بقوة قبل أن يجيب على سؤاله:

- أجد التنكر، أتحدث عدة لغات، أتقن كل اللهجات المصرية، إلا أنه لا علاقة لي بالطبخ.

يبدو أنه على علم بكل شيء، قد يعلم أخبارًا عن عائلته، سأله في حماس:

- أين عائلتي؟

- في الواقع لا علم لي بمكانهنّ الآن، آخر ما أعرفه عنهنّ أنهنّ كنّ في قصر صالح قوش بك، ماذا حدث لهنّ؟ لا أعرف، ربما عاقبوهنّ على جريمة السرقة، التي شاركن فيها جارك، ربما باعوهنّ في أيّ سوق، أو ربما ما زلن في القصر هناك كما هنّ، أو في قصر آخر من قصور البشوات، حان الوقت، وحذاري أن تسأل عنهنّ، فقط انساهن، تذكّر شيئًا واحدًا أنك مقبل على حياة جديدة، حياة جديدة لها قواعد مختلفة، تقبّلها كما هي، ولن تندم.

- كيف كانت تصلك الأخبار وترسلها؟

- لا تهتم بمثل هذه الأشياء.

لم يفهم كثيرًا من كلام العُكرش السابق، نفسه تنزف، روحه تتمزق، عرضه مستباح من قوم خَدَمهم، وعرض

حياته للخطر من أجلهم، وببساطة يطلب منه أن يقبل حياته الجديدة، ويعتاد عليها، سحبه من طرف عبائه البنية ليتحرك، مشيا في صمت، قبل بوابة القلعة نظر نحوه، بصوته الحاد عاد ليقدم له آخر نصائحه:

- هذه يا صديقي أرض المؤامرات، وهي لا تفصح عن نفسها أبداً، تأتي متخفية، تطبق برائنها في صمت على الضحية حتى تزهق أنفاسها، لا تصادق، لا تهادن، لا تسامح، لا تصدق فيها أحداً، ولا تظهر تكذيبك، حتى كلمة صديق التي قلتها لك هذه لا تصدقها، لا تُفشِ سرَّك أبداً، حاول أن تكسب مما حولك، ولا تُفدِ أحداً مهما كان، لا تتحدث كثيراً، لا تسأل مطلقاً، أنت أعمى رغم بصرك، أبكم مع وجود لسانك، أصم ولو كبرت أذناك، خذ كلامي هذا بمحمل الجد والشك، جرب أن تخالفه، وسترى ما لا يحمد عواقبه.

انتهى من نصائحه أو تعليماته قبل أن يدخل على الباشا، صمت، ترقب، توجس، خوف، لحظات ما قبل الموت، ألم يقل له حياة جديدة؟ عليه أن يدفن حياته الأولى، قبل أن يدخل في برزخ هذه الدنيا الجديدة، وأخيراً البعث، سمح لهما بالمثول أمام ولي النعم، وقدمه مرافقه المجهول المعروف سابقاً لصاحب العرش،

هزّ رأسه مستحسنًا وجوده، أشار لهما بالانصراف، بعد أن سلّمه ورقة صغيرة، ففتحها بعد أن خرجا، برقت عينا أحمد وسأل في لهفة:

- لا بد أنّ ذلك عقد الأرض التي اقتطعها لي إسكندر الزمان¹¹، أين هي بالله عليك؟

نظر بدهشة عارمة له، هل جنّ هذا الرجل؟ ألم يسمع عن بخل ولي النعم؟ يبدو أنّه لم يتعلم شيئًا من نصائحه، فَرَدَ يَدَهُ وَدَسَّ الورقة فيها، وابتسامة سخرية تغزو وجهه همس له:

- مبروك، عينك الباشا جاشنكير¹²، وأوقف لك جامكية¹³ قدرها خمسون بازا.

جاشنكير! أيّ مكافأة هذه؟ وأيّ إسكندر ذاك؟ وأيّ زمان هذا؟ سيواجه الموت كل يوم مرات ومرات كلما جاع أو عطش هذا الملعون، يا له من خبيث ماكر يستحق الموت كل ساعة، أدرك الذي لا اسم له ما يدور في عقل أحمد، وضع يده على صدره، ونظر بعمق في عينيه، وهو يهمس في مودة:

11- من ألقاب السلطان.

12- متذوق مآكل ومشرب السلطان أو الأمير للتأكد من خلوه من السم.

13- أجر أو منحة شهرية، كانت تُعطى من غلة الوقف.

- انغمس في حياتك، ولا تراقبها أو تتأملها، هي ستقودك
حيث تشاء، تمتع بها وكفى، ولا تبحث عن وطن فالأوطان
مغرية، بهية، تسهل سرقتها واحتلالها، عِش في منفى؛
فالمنافي لا يعرف قيمتها سوى المنبوذين والمركونين
على زوايا الحياة الباردة، لنا لقاء آخر، ستجدني بجانبك
عندما تحتاجني.

أغلق يديه على أمر تعيينه، وربت عليها، وابتسامته
الودودة ما زالت على شفثيه، أشار له بيده إلى طريق
المطبخ، وسار لا يلتفت خلفه حتى اختفى عن نظريه.

(31)

نيران الرغبة

جلس صاحب الستة والثلاثين ربيعًا منتفخ الأوداج سعيدًا بما وصل إليه، اليوم يضع قدمه على أول الطريق الصحيح، الذي حلم به طوال حياته البائسة، فسعادته أيامها تُعد على أصابع اليد الواحدة، أهمها على الإطلاق هو اليوم، توهم ذات يوم أنه امتلك العالم يوم زفافه على أمينة هانم.

ذهب إلى حجرتها فوجدها في انتظاره، تزينت كأميرة، ولم لا وقد أصبح زوجها والي مصر دون منافس، هبت عند دخوله وانحنت أمامه في حركة مسرحية، تقدّم نحوها، وأمسك بيديها، ولثمها بقبلة حارة، تلك اليد التي طالما وهبت له الكثير من ثروتها، اليوم شعرت بأن موافقتها على الزواج منه قرارٌ موفّق .

ساعدته ليتخفف من ملابسه، وجلست بجواره، نظر في عينيها اللوزيتين وتبسّم، تبسّمت هي الأخرى واحتضنت يديه، وقربتها من فمها

الكريزي، شعر بدفء أنفاسها، وهي تطبع قُبلة حارة في باطن يده، ضمَّها إلى صدره، وتذكَّر يوم أن رشحه لها «إسماعيل الشوربجي» وكيف ترددت في قبول تلك الزيجة! ولها كل الحق في التردد، نظر نحوها بعد أن وضع يده حول خصرها وسألها في تودد:

- ألا زلتِ تشعرين بالندم على زواجكِ مني؟

حاولت أن تتخلص من ذراعيه، اللتان أحاطتا وسطها، لكنهما فشلتا في ذلك، فزدَّت عليه في رِقَّةٍ مبالغة:

- من أخبرك أنني ندمتُ ذات يوم على الارتباط بك؟

- سيدة في جمالك، وغِنائك توافق على الزواج من بائع تبغ، ألا يدعو هذا للعجب؟

- عندما يرشحك لي حاكم البلاد؛ فلا يمكن أن أرفض.

تنهد والي مصر عندما تذكَّر مواقف الشوربجي إسماعيل، هذا الرجل الذي احتضنه بعد وفاة عمه «طوسون» ولم يبقَ له من عائلته إلا هو؛ ليتكفل به بعد أن أصبح لطيماً في سن الرابعة عشر، قست الدنيا كثيراً عليه، ولكنها تبشَّره اليوم بأنَّ صفحة البؤس قد طُويت من حياته، وها هو في انتظار مجلدات من السعادة.

خفف حصاره عن خصرها، فارتمت في أحضانه، وهي تخلل يدها الناعمة في لحيته، تبسّم لذلك فهو يحبُّ منها مثل تلك المداعبات، ولا

يسمح لأحد أبداً غيرها من الاقتراب من لحيته، مرّرت يدها على شفّتيه،
وسألته في خبثٍ ودلالٍ:

- لو كنتَ بقيتَ نائباً لكتيبة الألبان؛ هل كنتَ ستصل لما وصلتَ
إليه؟

عض أناملها برفق، فانزععتها من بين أسنانه، وهو يجيبها:

- هل تعلمين أن أكثر ما يثير حنقي هو كلمة نائب؟ حتى لو كنت نائباً
للسلطان، يوماً ما ستكون مصر خالصة لي ولأولادنا من بعدي، لكن حتمًا
وبالتأكيد كنتُ سأصل إلى مرادي.

- كيف؟

- الأمر لا يحتاج أن أكون فقط قائدًا لجنود، لكنه يحتاج لهذين.

وأشار إلى رأسه ولسانه.

- يبدو أنك تعلمت الكثير.

- بالطبع علّمتني الدنيا دروسًا، أولها: ستقسو علينا الحياة، لا لشيء،
وإنما لتنقيننا وتعدنا لما هو مقبل من أمور، فكلما ضيّقت علينا الخناق
هناك ثغرة لا يراها أحد سوى من استيقظ ذهنه، وعلت همّته، تعلّم أن
الحياة لن تتوقف إذا ما مات الأعداء، لكنها ستتوقف عندما نسلم أنفسنا
لليأس أو للهوان، فإن كانت المنيّة قد وافت أشقائي وشقيقاتي الستة

عشر، وتوفّي والدي وبعده أُمّي، ثم عمي الذي أواني، لكن الحياة لم تتوقف في بيت الشوربجي إسماعيل، فصديق العم قد يفعل ما لا يستطيع الوالد نفسه أن يفعله.

تنهدت أمينة هانم ونظرت في عيني زوجها العميقتين، انحدرت يدها برقة محاولة مسح ذكريات حزينة لا يستطيع مخلوق أن يزيلها من عقله، قَبَّلته بين عينيه قبل أن تردّ عليه:

- بالتأكيد قدّم لك الكثير، ساندك عندما انضمتَ لسلك الجندية، ولم يكتفِ بذلك لكنه عيّنك نائبًا لابنه على الكتيبة الألبانية، التي أتت لمصر مع الجيش العثماني؛ لتسلم الولاية العثمانية من يد الفرنسيين.

تماسك نفسه، ثم ابتسم بمكرٍ:

- لم يكن اختياره لي مجاملة.

- بالطبع لم تكن مجاملة، فلولا شجاعتك، وإقدامك لما أقدم على ذلك.

- يسعدني علمك بذلك.

- لم تكن فقط شجاعتك هي كل مؤهلاتك، لا تنكر مساعدتي لك في ذلك.

ضحك محاولاً تغيير دفة الحديث، فوكزته بخفة في صدره، وهي تتظاهر بالغضب:

- أتسخر مني؟

- لا بالعكس لكنك تنكرين ذكائي.

لم تستطع أمينة هانم أن تغفل ملحوظته، فهو وبشهادة كل من تعامل معه متّقد الذكاء، ذكاء يخيف من يقترب منه، ذكاء يتحول أحياناً إلى خبثٍ، ومزاتٍ لدهاءٍ، أكثر من مرة جنبّ كتيبته الاعتداء على المصريين، كما كانت تفعل باقي الكتائب العثمانية، أغضب هذا الوالي، ولكنه كسب رضا ومحبة شيوخ الأزهر، كم من مرة أبدت اعتراضها على عدم إطاعته لأوامر الوالي في المراسلات بينهما، لكنه كان محقاً، هو الآن والي مصر وملكرها، بينما باقي منافسيه إما أموات أو في طيّ النسيان، لا يذكرهم أحد.

اقتربت منه أكثر وألصقت صدرها الغض بذراعه، شعر بطراوة جسدها الأبيض المرمرى، فدنا منها أكثر محاولاً إشعال جذوة رغبته، لكنها ابتعدت عنه قليلاً، وهي تداعب شفته السفلى بسبابتها، وأردفت في دلالٍ:

- الآن أنا ملكة مصر، أليس كذلك يا مهجة الروح؟

- لا حبيبتي، أنتِ ملكة قلبي وسلطانة على عرشه فقط .

ظهر عليها الضيق، فابتعدت عنه، وراحت لطرف السرير، لمح تلك النظرة، التي يعرفها جيداً عندما تضيق ما بين حاجبيها، تشعر وقتها

بأنَّ السماء ستلقي بجامِّ غضبها على من غضبت عليه صاحبة الحاجبين المقرونين، ضحك من كل قلبه وهو يحاول جذبها نحوه، وهي تقاومه، فاعتدل في جلسته وأمسك يديها برفقٍ، وتبسّم في وجهها محاولاً وأد غضبها في مهده:

- عزيزتي، لم أمتلك مصر بعد.

ردّت عليه في عصبية:

- كيف ذلك وأنت الآن ملكها، وأنت باشا بثلاثة ذبول؟!

- قد تتصوّرين أنني الحاكم، لكنّي أعرف أنّ خارج هذه الغرفة تنتظرني المصاعب، هل تعتقدين أن حكمي هنا سيطول؟

- ولم لا؟

اقترب منها أكثر، ووضع ذراعه فوق كتفها، وضمها لصدره، وهو يجيب سؤالها:

- أنتِ واهمة يا زوجتي الحبيبة، قريباً سيخلعني السلطان مرة أخرى من منصبى هذا، لم أصل إلى هذا عن طريقه، بالتأكيد أغضبه ذلك، حاول إزاحتي عن حكم مصر، وتمكّنت من كسب هذه الجولة أيضاً، هل ترضى الحاشية حوله بما حدث؟

- وماذا عن ابني الذي هناك؟

- سيعود، ولكل شيء ثمن.

- يا ويلى، وماذا أنتَ فاعلٌ؟

مسح على شعرها مطمئنًا:

- سيعود قريبًا، تجريدة لبلاد الحجاز هي ثمن عودة ابننا.

- ومتى ستذهب هذه التجريدة؟

- الأمر يحتاج إلى ترتيب، الألبان لا يريدون الخروج للحرب، ويتركون
أمراء المماليك هنا، وأنا أؤيدهم في ذلك ربما استضعفوني في موقف مثل
هذا وانتزعوا الحكم مني، وأغاروا على بيوت الألبان ونهبوها.

- ليذهب الأمراء مع التجريدة.

- لا آمن وجودهم هناك أيضًا، إنهم أولاد حرام، لربما كانوا السبب
الرئيس لفشل المهمة.

- ما الحل إذًا؟

حاول أن يبث الثقة في نفسها دون أن يعطيها ردًا شافيا:

- لكل وقت أذان كما يقول أهل مصر، دعينا من ذلك الآن، ألا تظنين

أننا يجب أن نحتفل بليلتنا هذه؟

- نحتفل! وماذا عن باقي مشاكلك؟

- من تقصدين؟

- هؤلاء الذين يشاركونك الحكم.

- نعم، فهمتك، هؤلاء المعممين، لا تقلقي يا عزيزتي كلهم سينطوون تحت جناحي، وإلا عليهم تحمّل ما سيحدث لهم.

تعجبتُ من كلامه، هم من أتوا به للحكم، وهي على يقين بأنهم قادرون على سحب البساط من تحت قدميه، نظرت في عينيه متسائلة، فهمّ قصدها؛ اعتدل في جلسته، وهو ينظر نحو سقف الغرفة محاولاً إخفاء نواياه، تنهّد وانتظر قليلاً، ثم عاود حديثه:

- لا تعتقدي يا عزيزتي أنهم ملائكة، هم مجرد فقاعات بشر، لهم طلبات ورغبات، وعليهم التزامات، يعيشون في ترفٍ، ولن يتحملوا شظف العيش، لكل شيء ثمن ومقابل، إن أرادوا البقاء في عزّهم؛ عليهم إطاعتي، وإن رغبوا في الاستمرار بالتمتع بمضاجعة محازيهم وغلماهم؛ عليهم إظهار الولاء والطاعة، وإن أبوا؛ فليتحملوا قسوة الحياة، التي يعاني منها الشعب الذين ينتمون إليه.

- وماذا عن أمراء المماليك؟ هم حجر العثرة لعودة وليدي؟

أثار ذِكر المماليك قلقاً حقيقياً في نفسه، نعم تخلّص من كبارهم تقريباً، ودون مجهود يُذكر، مات البرديسي بمرضه، ومن ورائه الألفي،

لكنه لا يأمن بواقئهم، عاد مرة أخرى للنظر لسقف الغرفة، نظرت هي الأخرى نحوه، لترى إلى ما ينظر زوجها، التفت إليها ثم تنهد ومال فمه ناحية اليمين قليلاً، قبل أن يبوح بسرّه:

- لا حل إلا التخلص منهم بصورة نهائية، نطاردهم في الصعيد، ومن سيطلب الصلح منهم؛ لا مانع على أن يقيموا هنا تحت عيني في المحروسة، لن أسمح بتجزئة مصر بيني وبينهم، لكن في يوم ما، لا بد من القضاء عليهم قضاءً مبرماً بصورة أو بأخرى.

داعب خصلة من شعرها، اقترب منها أكثر، همس في أذنها:

- قريباً ستسمعين وترين ما يسرُّ خاطرك.

ضمَّها إلى صدره، وقبَّل وجنتيها، قامت في خفة، وأطفأت المصباح، وعادت للسريز مسرعة، سبحا معاً في بحيرة من العشق الدافئ، دقائق وابتلعهما بحر من نيران الرغبة.

25 فبراير 2016

30 يونيو 2018

”تمت“

شكر خاص

الشاعرة: إنعام صيام.

الكاتبة: رولا حسنات.

الكاتب: محمد آدم.

الكاتبة: إنجي مطاوع.

الكاتبة: نهاد أحمد.

الكاتبة: فيفي جابر.

السيد: محمد نجم.

د. عفاف السيد العلي.

